
المجمع العلمي العراقي
بغداد
مجلة المجمع العلمي



مجلة المجمع العلمي

الفهـرس

معانـــي الإِعــراب

الدكتور احمد مطلوب

رئيس المجمع العلمي

الملخص :

يتطرق البحث الى معاني الإعراب ودلالاتها بعد أن شاع بين بعض الدارسين أنها لا تدل على شيء وإنما الحركات الثلاثة : الضمة والفتحة والكسرة ، تأتي للانطلاق في النطق . وقد ناقش البحث هذه المسألة ، وانتهى الى ما انتهى اليه كثير من القدماء والمعاصرين من أن للحركات معانٍ تدل على ما يُقصد اليه من معنى يحدد الهدف ويوضح السبيل .

(١)

الإعراب ــ لغةً ــ هو ((الإِبانة ، يُقال : أعرب عنه لسانه ، وعرَّب ، أي : أَبان وأَفصح ، وأَعرب عن الرجل بَيَّن عنه، وعرَّب عنه : تكلم بحجته ... وإِنما سُمي الإِعراب إِعرابا لتبيينه وإِيضاحه ، ... ويُقال : أَعْرِبْ عما في ضميرك ، أي : أَبِنْ ، ومن هذا يقال للرجل الذي أَفصح الكلام : أَعرَبَ)) .

والإِعراب ــ اصطلاحا ــ : ((إِنما هو الإبانة عن المعاني بالأَلفاظ ، وأَعربَ كلامه : إِذا لم يلحن في الإِعراب))[١] .

---

[١] لسان العرب (عرب) .

ولا يخرج مفهوم الإعراب ــ اصطلاحا ــ عن هذا ، قال أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزّجاجيّ (-٣٣٧ ، أو ٣٤٠ هــ) : ((الإعراب : الحركاتُ المبينة عن معاني اللغة))[٢].

وقال أبو علي الحسن بن احمد الفارسيّ (-٣٧٧هــ) :((الإعراب : أنْ تختلف أواخر الكلم لاختلاف العامل)) . وأوضح عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني (- ٤٧١ ، أو ٤٧٤هــ) هذا التَّعريف بقوله : ((اعلم أنَّ الإعراب على وجهين :

أحدهما : أنْ يكون من قولهم : أَعرب عن نفسه ، إذا بَيَّنَ ما في ضميره وأوضحه ؛ لأن حقيقة الإعراب : إيضاح المعاني ...

والثاني : أنْ يكون (أعرب) منقولا عن قولهم : (عَربت معدَتُه) إذا فسدت ، فكأنَّ المعنى في الإعراب : إزالة الفساد ، ورفع الإبهام))[٣].

وقال أبو الفتح عثمان بن جني (-٣٩٢هــ) : ((هو الإبانة عن المعاني بالألفاظ ، ألا ترى أنك إذا سمعت : ((أكرمَ سعيدٌ أباه)) و ((شكرَ سعيد أبوه)) علمت برفع أحدهما ونصب الآخر ، الفاعلَ من المفعول ، ولو كان الكلام شَرْحا واحدا لاستبهم أحدهما من صاحبه)) ، ثم قال : ((وأما لفظه ، فإنَّه مصدر ((أعربت عن الشيء)) إذا أوضحت عنه ، ((وفلان مَعْرِبٌ عما في نفسه)) أي : مُبيّن وموضح عنه ، ومنه ((عرّبت الفرس تعريبا)) إذا بزغته ، وذلك أن تنسف أسفل حافره ، ومعناه : أنه قد بان بذلك ما كان مخفيا من أمره بظهوره مرآةَ عينه بعدما

---

[٢] الإيضاح في علل النحو ص ٩١ .

[٣] كتاب المقتصد في شرح الإيضاح ج١ ص ٩٧ .

كان مستورا ، وبذلك تعرف حاله : أَصلْبٌ هو أَم رَخْو ؟ وأَصحيح هو أم سقيم ؟ وغير ذلك))[٤].

وقال عبد الرحمن بن محمد الأنباري (-٥٧٧ هـ) : ((أما الإِعراب فحدُّه : اختلاف أَواخر الكلم باختلاف العوامل لفظا وتقديرا))[٥].

وقال أبو محمد القاسم بن علي الحريري البصري (-٥١٦ هـ) : ((وأما الإِعراب في صناعة النحو فهو تغير أَواخر الكلم لاختلاف العوامل الداخلة عليها))[٦].

وقال تقي الدين أبو الخير منصور بن فلاح اليمني (-٦٨٠هـ) : ((وحدُّه : عند مَنْ يرى أَنه الحركات ما اختلف أَواخر الكلم به حسا أو حكما لاختلاف العامل لفظا أَو تقديرا))[٧].

وذكر جلال الدين عبد الرحمن بن أَبي بكر السيوطي (-٩١١هـ) عشرة معانٍ للإِعراب ، وقال : إِنَّ ((المناسب للمعنى الاصطلاحي منها هو الأَول إذ القصد به إِبانة المعاني المختلفة))[٨]. ويريد به قوله : ((الإِبانة : يقال : ((أعربَ الرجلُ عن حاجته)) : أبان عنها ، ومنه الحديث : ((والثيِّب تُعْرِبُ عن نفسها)) .

---

[٤] الخصائص ج١ ص ٣٥ ـــ ٣٦ .

[٥] كتاب أسرار العربية ص ١٩ .

[٦] شرح ملحة الإِعراب ص ٢٩ .

[٧] المغني في النحو ج١ ص ٢٠٩، وينظر الأشباه والنظائر في النحو ج١ ص ١٧٢ .

[٨] همع الهوامع في شرح جمع الجوامع ج١ ص ٤٠ ، وينظر الأشباه والنظائر ج١ ص ١٧٨ .

وتعريف المعاصرين لا يبعد عما ذكر آنفا ، قال الدكتور شوقي ضيف (- ٢٠٠٥م) : ((الإعراب تغير آخر الكلمة رفعا ونصبا وجرا في الاسم المعرَّب ، ورفعا ونصبا وجزما بالسكون في الفعل المضارع))[٩].

وقال الدكتور احمد عبد الستار الجواري (- ١٩٨٨م) : ((الإعراب ــ كما هو معروف ــ معناه اللغوي هو الإبانة والإفصاح ، وهو في الإصطلاح النحوي : إبانة موقع اللفظ من التركيب والنظم))[١٠].

وقال الدكتور مهدي المخزومي (- ١٩٩٣م) : ((الإعراب ــ فيما نرى : بيان ما للكلمة أو للجملة من وظيفة لغوية ، أو من قيمة نحوية لكونها مسندا اليه ، أو مضافا اليه، أو فاعلا، أو مفعولا، أو حالا ، أو غير ذلك من الوظائف التي تؤديها الكلمات في ثنايا الكلام ــ أيضا ــ))[١١]. وقال : ((الإعراب : أنْ يتغير آخر الكلمة بتعاقب الأغراض النحوية التي تؤديها الكلمة في أثناء الجملة)) [١٢].

وحــركات الإعــراب ثلاث ، قــال الخليــل بن احمد الفراهيدي (-١٧٥هــ) : ((فالفتحة من الألف ، والكسرة من الياء ، والضمة من الواو))[١٣].

---

[٩] تجديد النحو ص ١٠٩ .

[١٠] نحو المعاني ص ٣٢ ، وينظر نحو التيسير ص ٦٦ .

[١١] في النحو العربي ــ نقد وتوجيه ــ ص ٦٧ ، وينظر في النحو العربي ــ قواعد وتطبيق على المنهج العلمي الحديث ص ٦٦ .

[١٢] في النحو العربي ــ قواعد وتطبيق على المنهج العلمي الحديث ص ٢٨ .

[١٣] كتاب سيبويه ج ٤ ص ٢٤٢ .

وقال ابن جني : ((إِنها أَبعاض حروف المد واللين ، وهي الألف والياء والواو ، فكما أَنَّ هذه الحروف ثلاثة فكذلك الحركات ثلاث وهي : الفتحة والكسرة والضمة ، فالفتحة بعض الألف ، والكسرة بعض الياء ، والضمة بعض الواو))[١٤].

وقال محمد بن الحسن الاسترابادي المعروف بالرضي(- ٦٨٨هـ) : ((إِنَّ الحركات في الحقيقة أَبعاضٌ حروف العلة))[١٥].

وقال الخليل بن احمد الفراهيدي إِنَّ الحركات إِنَّ الحركات الثلاث : ((زوائد ، وهن يلحقن الحرف ليوصل الى التكلم به ، والبناء هو الساكن الذي لا زيادة فيه))[١٦]، وهذا ما قاله أَحد تلاميذ سيبويه وهو محمد بن المستنير المعروف بقطرب (-٢٠٦ هـ) : ((وإنما أَعربت العرب كلامها ؛ لأَن الاسم في حال الوقف يلزمه السكون للوقف ، فلو جعلوا وصله بالسكون ــ أَيضا ــ لكان يلزمه الإِسكان في الوقف والوصل ، وكانوا يُبطئون عند الإِدراج ، فلما وصلوا وأمكنهم التحريك جعلوا التحريك معاقبا للإسكان ليعتدل الكلام : ألا تراهم بنوا كلامهم على متحرك وساكن، ومتحركين وساكن ، ولم يجمعوا بين ساكنين في حشو الكلمة ، ولا في حشو بيت ، ولا بين أربعة أحرف متحركة ؛ لأَنهم في اجتماع الساكنين يُبطئون ، وفي كثرة الحروف المتحركة يستعجلون ، وتذهب المهلة من كلامهم ، فجعلوا الحركة عقب الإِسكان)) . فقيل له : ((فهلاَّ لزموا

---

[١٤] سر صناعة الإِعراب ج١ ص ١٧ .

[١٥] شرح الرضي لكافية ابن الحاجب (القسم الأول ــ المجلد الأول) ص ٦٠ .

[١٦] كتاب سيبويه ج٤ ص ٢٤١ .

حركة واحدة ؛ لأنها مجزئة لهم ، إذا كان الغرض إنما هو حركة تعتقب سكونا ؟)) . فقال : ((لو فعلوا ذلك لضيقوا على أنفسهم فأرادوا الاتساع في الحركات ، وألاّ يحظروا على المتكلم الكلام إلا بحركة واحدة)) . قال الزجاجيّ : ((هذا مذهب قطرب واحتجاجه ، وقال المخالفون له ردا عليه : لو كان كما زعم لجاز خفض الفاعل مرةً ، ورفعه أُخرى ونصبه ، وجاز نصب المضاف اليه ؛ لأن القصد في هذا إنما هو الحركة تعاقب سكونا يعتدل به الكلام . وأيّ حركة أتى بها المتكلم أجزأتهُ فهو مخير في ذلك ، وفي هذا فساد للكلام وخروج عن أوضاع العرب وحكمة نظام كلامهم))[١٧].

والى مثل هذا ذهب الدكتور ابراهيم أنيس (- ١٩٧٧م) وقال : إنَّ تحريك أواخر الكلمات ((كان من صفة الوصل في الكلام شعرا أو نثرا ، فاذا وقف المتكلم أو اختتم جملته لم يحتج الى تلك الحركات ، بل يقف على آخر كلمة من قوله بما يسمى السكون ، كما يظهر أنَّ الأصل في كل الكلمات أنْ تنتهي بهذا السكون ، وأنَّ المتكلم لا يلجأ الى تحريك الكلمات إلا لضرورة صوتية يتطلبها الوصل))[١٨]. وقال : ((لم تكن تلك الحركات الإعرابية تحدد المعاني في أذهان العرب القدماء كما يزعم النحاة، بل لا تعدو أنْ تكون حركات يحتاج اليها في الكثير من الأحيان لوصل الكلمات بعضها ببعض))[١٩].

---

[١٧] الإيضاح في علل النحو ص ٧٠ ــ ٧١ .

[١٨] من أسرار اللغة ص ٢٠٤ .

[١٩] المصدر نفسه ص ٢٢١، وتنظر ص ٢٣٥، ٢٤٩، ٢٥٠، اللهجات العربية ص٦٢

وكان ابن جني قد أرجع علامات الإعراب الى المتكلم نفسه ، وقال : ((وإنما قال النحويون : عامل لفظي وعامل معنوي ليروك أنّ بعض العمل يأتي مسببا من لفظ يصحبه كـ ((مررت بزيد)) و ((ليت عمرا قائم)) وبعضه يأتي عاريا من مصاحبة لفظ يتعلق به كرفع المبتدأ بالابتداء ، ورفع الفعل لوقوعه موقع الاسم ، وهذا ظاهر الأمر وعليه صفحة القول . فأما في الحقيقة ومحصول الحديث ، فالعمل من الرفع والنصب والجر والجزم إنما هو للمتكلم نفسه لا لشيء غيره ، وإنما قالوا : لفظي ومعنوي لما ظهرت آثار فعل المتكلم بمضامة اللفظ للفظ ، أو باشتمال المعنى على اللفظ ، وهذا واضح))[٢٠]

وهذا ما ذهب اليه أبو العباس احمد بن عبد الرحمن بن مضاء اللخميّ القرطبيّ (- ٥٩٢هـ) وقال إن القول بأن العامل أحدث الإعراب ((بيّنُ الفساد)) ودعم رأيه بما قاله ابن جني ، وهو أنَّ ((العمل من الرفع والنصب والجر والجزم إنما هو للمتكلم نفسه لا لشيء غيره))[٢١].

ولكن ابن جني لم يثبت على قوله الذي دعمَ ابن مضاء رأيه به ، لأنه عند التطبيق أخذ بفكرة العامل النحوي المعهود عند سيبويه وأصحابه من بعده [٢٢].

فالحركات ـ كما ذكر آنفا ـ ((لها وظيفة صوتية ليس غير، وهذا يرفضه واقع الاستعمال اللغوي ، فالحركات تحمل قيما خلافية

---

(٢٠) الخصائص ج١ ص ١٠٩ ـ ١١٠ .

(٢١) كتاب الرد على النحاة ص ٨٦ ـ ٨٧ .

(٢٢) ينظر العامل النحوي بين مؤيديه ومعارضيه ودوره في التحليل اللغوي ص ٦٧ .

ودلالات لا يتضح المعنى بغيرها ، ولو كان الأمر ـ كما يرى قطرب ـ للتخفيف في الوصل عند الكلام فتمنع الحركات المتكلم من الابطاء وتكبح جماحه عند الحركة لكانت هناك حركة واحدة في كثير من الأساليب في مثل : ((الأسد ، المروءة ، نحن العرب ، كم كتابا ، لا تأكل سمكا وتشرب)) . ولما كانت هناك حاجة الى أَنْ تنطق تارةً بالضمة او الكسرة في تمييز (كم) الخبرية ، وأخرى بالفتحة ، فتشير بالفتحة الى معنى يختلف عن المعني السابق . وقد يترتب على هذا الفهم تصرف سلوكي يقوم به المخاطب والسامع))[٢٣].

وكان النحاة قد استقروا كلام العرب فوجدوا للحركات ودلالات ، قال الزجاجيّ : (((إنّ الأسماء لما كانت تعتورها المعاني فتكون فاعلة ، ومفعولة ، ومضافة ومضافا اليها ، ولم تكن في صورها وأَبنيتها أَدلة على هذه المعاني ، بل كانت مشتركة ، جعلت حركات الإعراب فيها تنبئ عن هذه المعاني))[٢٤].

وقال احمد بن فارس : ((فإنّ الإعراب هو الفارق بين المعاني ، ألا ترى أَنَّ القائل إذا قال : ((ما أَحسن زيد)) لم يفرق بين التعجب والاستفهام والذم إلا بالإعراب))[٢٥]، وهو من العلوم الجنيلة التي خصت بها العرب الذي ((هو الفارق بين المعاني المتكافئة في اللفظ وبه يعرف الخبر الذي هو أَصل الكلام ، ولولاه ما مُيز فاعل من مفعول ، ولا

---

(٢٣) المصدر السابق ص ٦٦ .

(٢٤) الإيضاح في علل النحو ص ٦٦ .

(٢٥) الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها ص ٦٦ .

مضاف من منعوت ، ولا تعجب من استفهام ، ولا صَدْر من مصدر ، ولا نعت من تأكيد))[٢٦].

وقد أوضح النحاة وجوه إِعراب الاسم ومنهم جار الله محمود بن عمر الزمخشري (– ٥٣٨هـ) إذا قال عن تلك الوجوه : ((هي الرفع ، والنصب ، والجر ، وكل واحد منها علم على معنى ، فالرفع علم الفاعلية والفاعل واحد ليس إِلا ، وأَما المبتدأ وخبره وخبر (إِنَّ) وأخواتها و (لا) التي لنفي الجنس ، وأَسم (كان) وأَخواتها ، واسم (ما) و (لا) المشبهتين بـ (ليس) فملحقات بالفاعل على سبيل التشبيه ، وللتقريب . وكذلك النصب علم المفعولية ، والمفعول خمسة أضرب : المفعول المطلق ، والمفعول به ، والمفعول فيه ، والمفعول معه ، والمفعول له ، والحال ، والتمييز ، والمستثنى المنصوب ، والخبر في باب (كان) والاسم في باب (إِنَّ) والمنصوب بـ (لا) التي لنفي الجنس ، وخبر (ما) و (لا) المشبهتين بـ (ليس) ملحقات بالمفعول ، والجر علم الإِضافة . وأَما التوابع فهي في رفعها ونصبها وجرها داخلة تحت أَحكام المتبوعات ، ينصبُّ عمل العاملَ على القبيلين انصبابةً واحدة))[٢٧].

وقال الرضي : ((جُعل الرفع الذي هو أَقوى الحركات للعُمد ، وهي ثلاثة : الفاعل ، والمبتدأ ، والخبر ، وجعل النصب للفضلات سواء اقتضاها جزء الكلام بلا واسطة كغير المفعول معه من المفاعيل وكالحال والتمييز ، أَو اقتضاها بواسطة حرف كالمفعول معه ، والمستثنى غير

---

[٢٦] المصدر نفسه ص ٧٧ ، وينظر المغني في النحو ج١ ص ١٩٦ .

[٢٧] المفصل في علم العربية ص ١٨ ، وينظر شرح المفصل ج١ ص ٧٢ .

المفرغ والأسماء التي تلي حروف الإضافة ــ أعني حروف الجر ــ . وإنما جُعل للفضلات النصب الذي هو أضعف الحركات وأخفها لكون الفضلات أضعف من العُمد وأكثر منها))[٢٨].

وقال السيوطي : ((أنواع الإِعراب رفع للعُمد ، ونصب للفضلات وجر لما بينها))[٢٩].

هذا ما قاله القدماء ، وليس جديدا ما ذكره ابراهيم مصطفى (- ١٩٦٢م) ((فأَما الضمة فانها علم الاسناد ، ودليل أَنَّ الكلمة المرفوعة يُراد أن يسند اليها ويتحدث عنها . وأَما الكسرة فإنها علم الإِضافة وإِشارة الى ارتباط الكلمة بما قبلها سواء كان هذا الارتباط بأداة أو بغير أَداة كما في ((كتاب محمد)) و ((كِتاب لمحمد)) . ولا تخرج الضمة ولا الكسرة عن الدلالة على ما اشرنا اليه إلا أَنْ يكون ذلك في بناء أَو في نوع من الإِتباع . أَمَّا الفتحة فليست علامة إِعراب ولا دالّة على شيء ، بل هي الحركة الخفيفة المستحبة عندِ العرب التي يُراد أَنْ تنتهي بها الكلمة كلما أمكن ذلك ، فهي بمثابة السكون في لغة العامة . فللإعراب الضمة والكسرة فقط ، وليستا بقية من مقطع ولا أَثرا لعامل من اللفظ ، بل هما من عمل المتكلم ليدل بهما على معنى في تأليف الجملة ونظم الكلام . فهذا جوهر الرأي عندنا ، وخلاصة ما نسعى بعده في تفصيله وتأييده))[٣٠].

---

[٢٨] شرح الرضي لكافية ابن الحاجب (القسم الاول ، المجلد الاول) ص ٥١ .

[٢٩] همع الهوامع ج١ ص ٦٤ .

[٣٠] إحياء النحو ص ٥٠ ، وتنظر ص (و) و ص ٧٨ وما بعدها .

وأي رأي له ؟ وهذا ما قاله القدماء وحددوا دلالة الفتحة بأنها علامة الفضلة أي غير الاسناد والإِضافة ، وقد دلّت على ذلك لكثرة المنصوبات في العربية .

وسار الدكتور مهدي المخزومي على نهج ابراهيم مصطفى، وقال: ((ليست الفتحة علما لشيء خاص ولكنها علم كون الكلمة خارجة عن نطاق الاسناد أو الاضافة))[٣١]، أَي لها دلالة ولم تذكر عبثا لأنها أخف الحركات فقط .

إما الدكتور احمد عبد الستار الجواري فقد قال : ((إِنَّ الرفع والنصب والخفض معانٍ تشعر بمكان اللفظ من الكلام وتدل عليه))[٣٢]، وهذا هو الصحيح .

فالإِعراب مهم سواء أكانت علاماته الضمة والفتحة والكسرة ، أَم الألف والواو والياء ، وإن لم يكن ((غاية في ذاته)) وإِنما غايته الأَساسية صحة النطق ، وهو ضروري [٣٣]، ولا يصح إذا خرج عن الإِعراب ، ولكنه لا يكون علامة تمايز إِذا كان الاسم مرفوعا أَو منصوبا أو مجرورا، وإِنما يكون التمايز في التركيب ، وهو توخي معاني النحو ، وهو ما أُطلق عليه عبد القاهر الجرجاني (النظم)، أَي ((تعليق الكلم بعضها ببعض ،

---

(٣١) في النحو العربي ــ نقد وتوجيه ص ٨١ ، وتنظر ص ٦٧ .

(٣٢) نحو التيسير ص ٧١ .

(٣٣) ينظر مدخل كتاب الرد على النحاة ص ٧٥ ، وص ١٦٤ من الكتاب ، وتجديد النحو ص ٢٦ ، وتيسير النحو ص ٥٨ ، وتقديم كتاب الإيضاح ص (د) .

وجعل بعضها بسبب من بعض))[٣٤]، وأوضح ذلك في تحليل آيات قرآنية وأبيات شعرية وهو في تحليله لا يذكر علامات الإعراب لأنها أساس الكلام ، ولا يصح التعبير إنْ وقع فيه خطأ أو خلل ، ويكون النظر فيما وراء ذلك ، والبحث عن (معاني النحو) والوقوف عليها ، ومن ذلك ما قاله في أبيات البحتري :

بلونا ضرائبَ مَنْ قد نَرى   فما إنْ رأينا لفتح ضَريبا
هو المرءُ أبدتْ له الحادثا   تُ عَزْما وشيكا ورأيا صليبا
تَنَقَّلَ في خُلُقَي سُؤْدَدٍ   سَماحا مُرَجَّى وبأْسا مَهيبا
فكالسيف إنْ جئتَه صارخا   وكالبحــرِ إنْ جئتَهُ مُستثيبا

((فاذا رأيتها قد راقتك وكثرت عندك ، ووجدت لها اهتزازا في نفسك ، فَعُدْ فانظر في السبب ، واستقصِ في النظر ، فإنك تعلم ضرورةً أنْ ليس إلا أنه قدَّم وأخَّر ، وعرَّف ونكَّر ، وحذف وأضمر، وأعاد وكرَّر، وتوخى على الجملة وجها من الوجوه التي يقتضيها (علم النحو) فأصاب في ذلك كله ، ثم لَطَّف موضعَ صوابه ، وأتى مأتىً يُوجب الفضيلة ، أفلا ترى أنَّ أوَّلَ شيءٍ يروقك منها قوله : ((هو المرءُ أبدَتْ له الحادثات)) ثم قول : ((تنقل في خُلُقَي سؤدد)) بتنكير ((السؤدد)) وإضافة ((الخُلقينِ)) اليه ، ثم قوله : ((فكالسيف)) وعطفه بالفاء مع حذفه المبتدأ ؛ لأن المعنى لا مَحالة ((فهو كالسيف)) ثم تكريره الكاف في قوله : ((وكالبحر)) ثم أنْ قَرن الى كل واحد من التشبيهين شرطا جوابه فيه ،

---

[٣٤] دلائل الإعجاز ص ٤ .

ثم أنْ أخرج من كل واحد من الشرطين حالا على مثال ما أخرج من الآخر ، وذلك قوله : ((صارخا)) هناك و ((مستثيبا)) ههنا . لا ترى حسنا تنسبه الى النظم ليس سببه ما عددتُ أو ما هو في حكم ما عددتُ ، فاعرِفْ ذلك))[٣٥].

(٢)

أنكر بعض القدماء والمعاصرين أَنْ تكون لعلامات الإِعراب دلالة ، وأنكر ابراهيم مصطفى أَنْ تكون للفتحة دلالة ، وإِنما هي ((الحركة الخفيفة المستحبة عند العرب التي يُراد أَنْ تنتهي بها الكلمة كلما أمكن ذلك، فهي بمثابة السكون في لغة العامة))[٣٦]، على الرغم من أَن القدماء كالزمخشري والسيوطي والرضي واليمني ذكروا أَنَّ الضمة للفاعلية والفتحة للفضلة ، والكسرة للاضافة ، أي أَنَّ المعاني التي تدل عليها الحركات ثلاثة ((الفاعل وما أَشبهه فأعطوه الرفع ، والمفعول وما أَشبهه فأَعطوه النصب ، والمضاف اليه وما أَشبهه فأعطوه الجر ، ثم زادوا الجزم للفعل لقوة مشابهته للاسم))[٣٧].

لم يكن خلاف المعاصرين في المرفوعات والمجرورات ، وإِنما الخِلاف في المنصوبات وعلامة نصبها على الرغم من أَن القدماء ذكروا

---

[٣٥] دلائل الاعجاز : ص ٨٥ ـ ٨٦ .

[٣٦] إحياء النحو ص ٥٠ .

[٣٧] المغني في النحو ج١ ص ٢٢٧ ، وذكر ابن فلاح اليمني في كتابه هذا ج١ ص ٢٣٧ للرفع أربع علامات ، وللنصب خمس علامات ، وللجر ثلاث علامات وللجزم ثلاث علامات .

أنها لما فضل من الاسناد والاضافة ، أي أنها تدل على غير هذين من الكلام أي ((أَنَّ الرفع والنصـــب والخفض مَعانٍ تشعـــر بمكان اللفظ من الكلام وتدل عليه))[٣٨].

وقد حدد القدماء المنصوبات ، وذكر سيبويه في الكتاب نحو ثلاثين بابا تحدث فيها عما يجيء في الكلام منصوبا[٣٩]، وهذه المنصوبات تعبر عن أَساليبَ عربيةٍ مختلفة ولم يقع فيها خلاف كبير كما وقع في اسم (إِنَّ) وأَخواتها واسم (لا) النافية للجنس إذ نصبت الاسماء في حين أَن من حقها الرفع لأَنها مبتدآت في الأصل . قال ابراهيم مصطفى عن اسم (إِنَّ) إنَّه ((مُتحدث عنه ، وحقه الرفع على أَصلنا الذي قررناه ، ولكنه منصوب ، ولا نتخرج أَن نقول : إِن النحاة قد أَخطأوا فهم هذا الباب وتدوينه ، ثم تجرأوا على تغليط العرب في بعض أَحكامه))[٤٠]. فاسم (إِنَّ) وأَخواتها مرفوع ، واستشهد بقوله تعالى : ((قالوا إِنْ هذانِ لساحرانِ يُريدان أَنْ يخرجاكم من أَرضكم بسحرهما)) (طه ٦٣) .

لقد وردتْ (إِنْ) في المصحف الشريف بتسكين النون لا بتشديدها وفتحها ، وفسرها جار الله الزمخشري بما نقله ، وذكر أَنَّ (إِنَّ) بمعنى (نَعمَ) و (ساحران) : خبر مبتـــدأ محذوف ، واللام داخـــلة على الجملة

---

(٣٨) نحو التيسير ص ٧١ .

(٣٩) ينظر كتاب سيبويه ج١ ص ٢٥٣ ، ٢٧٣ ، ٢٩٠ ، ٣١٢ ، ٣١٨ ، ٣٢٢ ، ٣٣٥ ، ٣٤٨ ، ٣٦٧ ، ٣٧٠ ، ٣٧٦ ، ٣٧٨ ، ٣٨٠ ، ٣٩١ ، ٣٩٦ ، ٣٩٧ ، ج٢ ص ٦٠ ، ٦٢ ، ٧٧ ، ١١٤ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١٢٢ ، ١٧٢ ، ١٧٤ ، ج٣ ص ٢٨٦ .

(٤٠) إحياء النحو ص ٦٤ .

تقديره ((لهما ساحران)) [٤١].

وقد يُراد بها ((ما هذان إلاّ ساحران يريدان الاستيلاء على أَرض مصر وإِخراجكم منهـا بهذا السحـر))[٤٢]، أي أَنها حرف نفي و (هذان) مبتدأ ، و (ساحران) خبر [٤٣]، وليس من حاجة الى تأويل النحاة ما دام القرآن الكريم قد قطع دابـر المؤولّين ، وذكر الحرف ساكن النون .

واستشهد ابراهيم مصطفى بقوله تعالى : ((إِنَّ الذين آمنوا والذينَ هادوا ، والصابئونَ والنصارى مَنْ آمنَ باللهِ واليومِ الآخر ، وعَمِلَ عملا صالحا فلا خوفٌ عليهم ، ولا هم يَحزنون)) (المائدة ٦٩) . ولا يسند رأيه مجيء (والصابئون) لأَن الكلمة رفعت على الابتداء ، قال جار الله الزمخشري : ((والصابئون رفع على الابتداء وخبره محذوف ، والنية به التأخير عما في حيز (إِنْ) من اسمها وخبرها كأَنّه قيل : ((إِنَّ الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى حكمهم كذا ، والصابئون كذلكَ ، وأَنشد سيبويه شاهدا له :

وإِلاّ فاعلمـوا أَنّا وأَنتـم بُغـاةٌ ما بقينا في شِقـاقِ

أي : ((فاعلموا أَنَّا بُغاة وأَنتم كذلك))[٤٤].

---

(٤١) الكشاف ج٣ ص ٥٦ .

(٤٢) صفوة التفاسير ج٢ ص ٢٣٨ .

(٤٣) معجم إعراب ألفاظ القرآن الكريم ص ٤١١ .

(٤٤) الكشاف ج١ ص ٥١٤ .

وجاءت الكلمة معطوفة في قوله تعالى : ((إِنَّ الذين آمنوا والذينَ هادوا والنصارى والصابئين مَنْ آمَنَ بالله واليومِ الآخِرِ ، وعَمِلَ صالحا فلهم أَجْرهم عند ربهم ولا خَوفٌ عليهم ولا هُم يحزنون)) (البقرة ٦٢) ، وقوله : ((إِنَّ الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إِنَّ الله يَفْصِل بينهم يومَ القيامةِ ، إِنَّ الله على كل شيءٍ شهيد)) (الحج ١٧) .

فكلمة (الصابئون) ليست دليلا على أَنها معطوفة على اسم (إِنَّ) وإِنَّما هي مبتدأ ، كما ذكر الزمخشري ، أو أَنَّ في الآية تقديما وتأخيرا والتقدير فيه : ((إِنَّ الذين آمنوا والذين هادوا ومن آمن بالله واليوم الآخر فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، والصابئون والنصارى كذلك)) . أو أَنْ يجعل ((مَنْ آمن بالله واليوم الآخر)) خبر الصابئين والنصارى ، وتضمر ((للذين آمنوا والذين هادوا)) مثل الذي أظهرت للصابئين والنصارى))[٤٥].

واستشهد ابراهيم مصطفى بقراءة من رفع (الملائكة) في قوله تعالى : ((إِنَّ الله وملائكته يصلون على النبي)) (الاحزاب ٥٦) وهي في المصحف الشريف بالنصب ؛ لانها معطوفة على اسم (إِنَّ) .

واستشهد بحديث :((إِنَّ من أشدِّ الناس عذابا يومَ القيامة المصورون)) ولا يخطئ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيأتي بما يخرج عن فصاحته وبلاغته وهو القائل : ((أَنا أفصح العرب بيد أَني من قريش)) وما أضعف حجج بعضهم حين يبحث عن الشاذ والغريب ، أو

---

[٤٥] كتاب أسرار العربية ص ١٥٣.

الموضوع والمنحول ليسند رأيا أتى به ليكسر عمود العربية ، وما استقرت عليه الأصول .

واستشهد ببيت بشر بن أبي خازم :

وإلاّ فاعلموا أنَّا وأَنتم بُغاةٌ ما بقينا في شِقاقِ

وهو البيت الذي قال عنه سيبويه : ((كأنه قال : بغاة ما بقينا وأنتم))[٤٦] وبذلك يكون الشاهد صحيحا .

وليؤكد رأيه قال : إنَّ استعمال (إنَّ) في القرآن الكريم أكثر ما استعملت متصلة بالضمير ، ووضع جدولا للمكسورة الهمزة والمفتوحة ، وكانت جملة المتصلين بالضمير (٩٢٠) ، والمتصلة بالظاهر (٤٤٤) والمتصلة بالموصول (١١٦) والمتصلة بالاشارة (٤٥) والمكفوفة (١٥٦)[٤٧].

ولن يسعفه هذا الإحصاء ؛ لأَنَّ القرآن الكريم كان ينوّع في أَساليب التعبير بحسب المعنى والمقام والسياق ، فقد يأتي الاسم الظاهر بعد (إِنَّ) وأخواتها وقد يأتي ضميرا ، أو اسما موصولا ، أَو اسم إِشارة .

وكان أبو بشر عمرو بن عثمان المعروف بسيبويه (- ١٨٠ هـ) قد ذكر أَنَّ (إِنَّ) وأَخواتها تعمل عمل الفعل فيما بعده ، وزعم الخليل بن احمد الفراهيدي أَنها عملت عملين : الرفع والنصب[٤٨]، وفرق بين المفتوحة الهمزة والمكسورة ، قال : ((أَما (أَنَّ) الخفيفة وتكون (أَنْ)

---

[٤٦] كتاب سيبويه ج٢ ص ١٥٦ ، وينظر الكشاف ج١ ص ٥١٤ .

[٤٧] ينظر الجدول في إحياء النحو ص ٦٨ .

[٤٨] كتاب سيبويه ج٢ ص ١٣١ ، وتنظر ١٤٢ ، ١٤٤ ، ١٤٨ .

اسما، ألا ترى أنك تقول : ((قد عرفتُ أنك منطلق)) فـــ (أنك) في موضع اسم منصوب ، كأنك قلت : ((قد عرفت ذاك)) . وتقول : ((بلغني أنك منطلق)) فـــ (أنْك) في موضع اسم مرفوع ، كأنك قلت : ((بلغني ذاك)) فإنَّ الاسماء التي تعمل فيها صلة لها كما أَنَّ (أَنَّ) الأفعال التي تعمل فيها صلة لها)) ثم قال : ((وأما (إِنَّ) فانما هي بمنزلة الفعل لا يعمل فيها ما يعمل في (أَنَّ) كما لا يعمل في الفعل ما يعمل في الأسماء ، ولا تكون (إِنَّ) إلا مبتدأةً ، وذلك قولك : ((إِنَّ زيدا منطلقٌ)) و ((إِنك ذاهبٌ))[٤٩].

وقال أبو بكر محمد بن سهل بن السَّراج (- ٣١٦هـ) إِنَّ ما كان المنصوب هو المرفوع في المعنى ثلاثة أضرب : ((فمنه ما العامل فيه فهل حقيقي ، ومنه ما العامل فيه شيء على وزن الفعل ويتصرف تصرفه وليس بفعل في الحقيقـــة ، ومنه ما العامل فيه حرف جامد غير متصرف))[٥٠].

ومن الأول : الحال والتميـيز ، ومـــن الثانـــي : خبـــر (كان) وأَخواتها ، ومن الثالث : الحروف التي تعمل عمل الفعل فترفع وتنصب وهي (إنَّ) واخواتها[٥١]، أي أَنَّ محل اسم (إنَّ) الرفع على الابتداء .

وقال الزَّجاجيّ :(فأَما العلة القياسية فأَنْ يقال لمن قال : نصبت (زيدا) بـــ (إِنَّ) في قوله : ((إِنَّ زيدا قائم)) ولِمَ وجب أَنْ تنصب

---

[٤٩] كتاب سيبويه ج٣ ص ١١٩ ــ ١٢٠ .

[٥٠] الأصول في النحو ج١ ص ٢١٣ .

[٥١] الأصول في النحو ج١ ص ٢٢٩ .

(إنَّ) الاسم ؟ فالجواب في ذلك أنْ يقول : لأنّها وأخواتها ضارعت الفعل المتعدي الى مفعول فحملت عليه ، فأعملت إعماله لمّا ضارعته ، فالمنصوب بها مُشبَّه بالمفعول لفظا ، والمرفوع بها مشبَّه بالفاعل لفظا ، فهي تشبه من الأَفعال ما قُدِّمَ مفعوله على فاعله نحو : ((ضرب أَخاك محمد)) وما أَشبه ذلك)) [٥٢]. وقال في (باب الحروف التي تنصب الاسم وترفع الخبر) : ((وإنما نصبت الاسم ورفعت الخبر لمضارعتها الفعل المتعدي ، وذلك أَنها تطلب اسمين كما يطلبهما الفعل المتعَدّي ، ويتصل بها المضمر المنصوب كما يتصل بالفعل المتعدي))[٥٣].

وقال ابن جني عن (إنَّ) وأخواتها : ((فهذه الحروف كلها تدخل على المبتدأ والخبر ، فتنصب المبتدأ ويصير اسمها ، وترفع الخبر ويصير خبرها ، واسمها مشبه المفعول ، وخبرها مشبه بالفاعل))[٥٤].

وعلل الزمخشري نصب اسم (إنَّ) ورفع خبرها بقوله : ((ارتفاعه عند أَصحابنا بالحرف لأَنه أَشبه الفعل للزومه الأَسماء ، والماضي منه في بنائه على الفتح ، فألحق منصوبه بالمفعول ، ومرفوعه بالفاعل))[٥٥].

وقال أبو البركات الأَنباري : ((فإنْ قيل : فلم نصبت الاسم ورفعت الخبر ؟) قيل : لأَنها أَشبهت الفعل ، وهو يرفع وينصـــب ، شبهت (به)

---

(٥٢) الايضاح في علل النحو ص ٦٤ ، وينظر علل النحو لابن الوراق ص ١٨٨ .

(٥٣) كتاب الجمل في النحو ص ٥١ ـــ ٥٢ .

(٥٤) كتاب اللمع في العربية ص ٤١ .

(٥٥) المفصل ص ٢٧ ، وينظر شرح المفصل ج١ ص ١٠٢ .

فنصبت الاسم تشبيها بالمفعول ، ورفعت الخبر تشبيها بالفاعل))[٥٦].

وقال الحريري : ((أجريت مجرى الفعل المتعدي الذي يرفع وينصب بفعليته ، إلا أنها تجري مجرى الفعل الذي تقدم مفعوله ، وأُخر فاعله))[٥٧].

وقال ابن فلاح اليمني : ((فإنما عملت لاختصاصها بالأسماء ، وإنما عملت عمل الأفعال رفعا ونصبا لأنها أشبهت الأفعال معنى ولفظا ، أما المعنى فلأنَّ معانيها معاني الأفعال كـ (أكدت) و (شبهت) و (تمنيت) و (استدركت)))[٥٨].

وقال بدر الدين بن مالك (- ٦٨٦هـ) : ((وهذه الحروف شبيهة بـ (كان) لما فيها من سكون الحشو وفتح الآخر ، ولزوم المبتدأ والخبر ، فعملت عكس عمل (كان) ليكون المعمولان معها كمفعول قُدم ، وفاعل أُخر ، فتبين فرعيتها ، فلذلك نصبت الاسم ، ورفعت الخبر))[٥٩].

إنَّ شبه (إنَّ) وأخواتها بالأفعال معنى ولفظا جعل اسمها منصوبا كالمفاعيل المنصوبة بالأفعال .

ومن أمثلة (إنَّ) المكسورة الهمزة المتصلة بالاسم الظاهر : ((إِنَّ اللهَ لا يستحيي أَنْ يَضْرِبَ مثلا ...)) (البقرة ٢٦) وقوله :

---

[٥٦] كتاب أسرار العربية ١٤٩ .

[٥٧] شرح ملحة الإعراب ١٤٢ .

[٥٨] المغني في النحو ج٣ ص ١٢٣ .

[٥٩] شرح ألفية ابن مالك لابن الناظم ص ١٦٢ ، وينظر شرح الرضي لكافية ابن الحاجب (القسم الثاني ، المجلد الثاني) ص ١٢٣١ ، شرح التصريح على التوضيح ج١ ص ٢١١ .

((إِنَّ اللهَ لَذو فَضلٍ على الناس)) (البقرة ٢٤٣) وقوله : ((إِنَّ أَوَّلَ بيتٍ وُضِعَ للناس للذي ببكَّة)) (آل عمران ٩٦) .

ومن أمثلةِ (أَنَّ) المفتوحة الهمزة المتصلة بالاسم الظاهر ، قوله تعالى : ((وأَنَّ اللهَ بكلِ شيءٍ عليم)) (المائدة ٩٧) وقوله : ((اعلموا أَنَّ اللهَ شديدُ العِقاب)) (المائدة ٩٨) .

جاءت (كأَنَّ) متصلة بالظاهر في قوله تعالى : ((وَيْكأَنَّ اللهَ يبْسُطُ الرزقَ لمن يشاءُ من عباِده ويَقْدِرُ ، لولا أن مَنَّ اللهُ علينا لخَسَفَ بنا ، وَيكأَنَّه لا يُفلحُ الكافرونَ)) (القصص ٨٢) .

ومن (لكنَّ) المتصلة بالاسم الظاهر قوله تعالى : ((وما كَفر سليمانُ ولكنَّ الشياطينَ كفروا)) (البقرة ١٠٢) ، وقوله : ((ولكنَّ البِرَّ من آمَنَ باللهِ واليومِ الآخِرِ)) (البقرة ١٧٧) ، وقوله تعالى : ((ولكنَّ الظالمين بآياتِ اللهِ يجْحدون)) (الأَنعام ٣٣) .

ومن (ليتَ) المتصلة بالاسم الظاهر قوله تعالى : ((يا ليتَ لنا مِثْلَ ما أُوتيَ قارون ، إِنَّه لذو حَظٍ عظيم)) (القصص ٧٩) ، وقوله : ((يا ليتَ بينك وبينك بُعْدَ المشرقين ، فبئس القرين)) (الزخرف ٣٨) .

ومن (لعلّ) قوله تعالى : ((وما يُدريك لعلَّ الساعة تكونُ قريبا)) (الاحزاب ٦٣) ، وقوله : ((وما يُدريك لعلَّ الساعَة قريب)) (الشورى ١٧) ، وقوله : ((لا تدري لعلَّ الله يُحْدِثُ بعد ذلك أَمرا)) (الطلاق ١) .

لقد جاءت أسماء (إِنَّ) وأخواتها أسماء ظاهرة منصوبة ، وجاءت أَخبارها مرفوعة على اختلاف معانيها ، إذ معنى (إِنَّ) التوكيد ، ومعنى (أَنَّ) التحقيق ، ومعنـــى (كأَنَّ) التشبيه، ومعنـــى (لكنَّ) الاستدراك ،

ومعنى (ليت) التمني ، ومعنى (لعل) التوقع والرجاء [٦٠] .

وبُني كلام العرب على هذا الأَساس ، ولا عبرة بما جاء شاذا ، أَو منحولا ، ومن ذلك أَنَّ (لعلَّ) حرف جر بلغة عُقيل ، ومن ذلك قول كعب بن سعد الغنوي :

فقلتُ ادْعُ أخرى وارفع الصوتَ جهرة لعلَّ أَبي المغوار منكَ قريبُ

وقول الآخر :

لعلّ اللهِ فضلكم علينـــــا بشـــيء أَنَّ أمَّكُــمُ ...

وقال ابن عقيل إِنَّ (أَبي المغوار) والاسم الكريم مبتدآن . و (قريبُ) و (فضلكم) خبران ، و (لعلَّ) حرف زائد دخل على المبتدأ ، فهو كالباء في ((بحسبكَ درهم))[٦١].

إِنَّ استعمال الحروف المشبهة بالفعل لم يخرج عما جاء في القرآن الكريم ، وكلام العـــرب ، وبذلك يبطل ما ذهب اليه ابراهيم مصطفى ومـــن شايعه ، وأَنَّ رفع أسمـــاء هذه الحروف بالفتحة لشبهـــهـــا بالافعـــــال وهي بعـــد ذلك مسنـــد اليـــــه وإن جـــاءت منصـــوبة[٦٢]، لا يقـــدح بصحته غير المتنطعين .

---

[٦٠] ينظر كتاب الجمل في النحو ص ٥١، وكتاب اللمع ص ٤١ ، وشرح ملحة الإعراب ص ٤٢ ، وشرح ابن الناظم ص ١٦١، وشرح بن عقيل ج١ ص ٢٩٦ ، وشرح الرضي للكافية (القسم الثاني ، المجلد الثاني ص ١٢٣ .

[٦١] شرح ابن عقيل ج٢ ص ٤ .

[٦٢] ينظر شرح الرضي لكافية ابن الحاجب (القسم الأول ، المجلد الثاني) ص ٨١ .

واسم (لا) النافية للجنس منصوب كاسم (إِنَّ) وأَخواتها ، قال سيبويه : ((و (لا) تعمل فيما بعدها فتنصبه ، ونصبها لما بعدها كنصب (إِنَّ) لما بعدها ، وترك التنوين لما تعمل فيه لازم ؛ لأَنها جُعلت وما عملت فيه بمنزلة اسم واحد نحو (خمسةَ عشرَ) ، وذلك لأَنها لا تشبه سائر ما ينصب مما ليس باسم ، وهو الفعل وما أُجري مجراه ؛ لا تعمل إلا في نكرة ، و (لا) و (ما) تعمل فيه في موضع ابتداء ، فلما خُولف بها عن حال أَخواتها خُولِف بلفظها كما خولف بـــ (خمسةَ عشرَ) و (لا) لا تعمل إِلا في نكرة كما أَنَّ (رُبَّ) لا تعمل إلا في نكرة))[٦٣]. وقال : ((وتقول : ((لا غلامَ وجاريةً فيها)) ؛ لأَنَّ (لا) إنما تُجعل وما تعمل فيه اسما واحدا إِذا كانت الى جانب الاسم ، فكما لا يجوز أَنْ نفصل (خمسةَ) عن (عشرَ) ، كذلك لم يستقم هذا لأنه مشبّه به ، فاذا فارقه جرى على الأصل))[٦٤] .

فالأَداة (لا) النافيـــة للجنـــس مركبـــة مـــع اسمهـــا كتركيب (خمسةَ عشرَ) ، ولذلك لا يجوز الفصل بينها وبين اسمها ، ولا تعمل إلا في نكرة ، وهي ومعمولها في موضع ابتداء ، قال سيبويه : ((واعلم أَنَّ (لا) وما عملت فيه في موضع ابتداء كما إذا قلت : ((هل من رجل)) فالكلام بمنزلة اسم مرفـــوع مبتـــدأ))[٦٥]. ويجـــوز حذف خبرها مثل :

---

(٦٣) كتاب سيبويه ج٢ ص ٢٧٤ .

(٦٤) كتاب سيبويه ج٢ ص ٢٨٤ .

(٦٥) كتاب سيبويه ج٢ ص ٢٧٥ .

((لا رجل ، ولا شيء)) والمراد ((لا رجل في مكان ولا شيء في زمان))[٦٦].

وقال ابن جني : ((اعلم أنَّ (لا) تنصب النكرة بغير تنوين ما دامت تليها ، وتُبنى معها على الفتح كـ (خمسةَ عشرَ) ، تقول : ((لا رجلَ في الدار)) و ((لا غلامَ لك)) ، فإنْ فَصلت بينهما بطل عملها))[٦٧].

وقال الزمخشري : ((إن (لا) محذوٌّ بها حَذْوَ (إنَّ) من حيثُ أَنها نقيضتها ، ولازمة للأسماء ولزومها))[٦٨]، وقال : ((هي كما ذكرت محمولة على (إنَّ) فلذلك نُصب بها الاسم ورُفع الخبر))[٦٩].

وقال بدر الدين بن مالك : ((إذا قُصد بالنكرة بعدها الاستغراق صَحَّ فيها على أنْ تُحمل على (إنَّ) في العمل ؛ لأَنها لتوكيد النفي ، و (إنَّ) لتوكيد الإيجاب فهي ضدها ، والشيء قد يُحمل على ضده كما يحمل على نظيره ؛ لأَن الوهم ينزل الضدين منزلة النظيرين ، ولذلك نجد الضد أقربَ حضورا في البال مع الضد)) . ثم قال : ((وأَما إعمالها عمل (إنَّ) فمشروط بأَنْ تكون نافية للجنس ، واسمها نكرة متصلة سواء كانت موحدة نحو ((لا غلامَ رجلٍ جالسٌ)) أَو مكررة نحو ((لا حولَ ولا قوةَ إلا بالله)) ، فإنْ كانت منفصلة وجب الإلغاء كقوله تعالى : ((لا فيها

---

[٦٦] ينظر كتاب سيبويه ج٢ ٢٧٥ ، ٢٧٩ .

[٦٧] كتاب اللمع ص ٤٤ ، وينظر كتاب الجمل في النحو ص ٢٣٧ .

[٦٨] المفصل ص ٣٠ ، وينظر شرح المفصل ج١ ص ١٠٥ .

[٦٩] المفصل ص ٧٤ ، وينظر شرح المفصل ج٢ ص ١٠٠ .

غَولٌ)) (الصافات ٤٧) ، وقد يجوز الغاؤها مع الاتصال، وذلك كُررت، شبهوها ـ إذْ ذاك بحالها مع المعرفة نحو : ((لا حولَ ، ولا قوة إِلا بالله))[٧٠].

وفصَّل ابن فلاح اليمني في بحث (لا) النافية للجنس ، وقال : إِنَّها عملت لشبهها (إنَّ) في خمسة أَوجه :

الأول : اشتراكهما في تلقي القسم .

الثاني : اشتراكهما في التأكيد ، فإنَّها لتأكيد النفي كما أَنَّ (إنَّ) لتأكيد الإثبات .

الثالث : أَنها نقيضة (إِنَّ) وهم يحملون الشيء على نقيضه حملا لأجل الطرفين على الآخر لتلازمهما في الذهن ، فإذا أُعطي أحدهما حكما أُعطي الآخر الملازم مثله .

الرابع : اشتراكهما في طلب التصدر .

الخامس اشتراكهما في الدخول على المبتدأ والخبر .

فلما ناسبتها في هذه الأَوجه عملت عملها ليظهر بذلك تأثير الشبه .

((ثم إنها تفارقها في عدم عملها في معرفة ، لا مظهر ولا مضمر ، وفي أَنَّه إذا فُصل بينها وبين اسمها بالظرف بطل عملها بخلاف (إِنَّ) ، وفي أَنها تُركَّب مع اسمها بخلاف (إِنَّ) ، وفي أَنه مختلف في عملها في خبرها عند البصريين بخلاف (إِنَّ) ، وفي أَنَّ اسمها يحذف منه التنوين في بعض الصور بخلاف (إِنَّ) ، وفي أَنه مختــلف في إِعــراب اسمها

---

[٧٠] شرح الفية ابن مالك لابن الناظم ص ١٨٦ .

وبنائه في بعض الصور بخلاف (إنَّ)[٧١].

ثم تحدث عن بنائها وإعرابها ، وقال إنَّ النصب يدل على الإعراب ، وذكْرَ (خمسة عَشرَ) يدل على البناء . وقال : ((حجة مَنْ قال بالبناء من ثلاثة أَوجه :

أَحدها : ذهاب التنوين لغير مُعاقِب .

الثاني : تركيبها مع اسمها بدليل امتناع الفصل بينهما بالظرف ، فإنْ قيل : التركيب يُبطل عملها ، قلنا : نحن لا نحكم بالتركيب إلا بعد العمل .

الثالث : أَنه مبني لتضمنه معني الحرف الدال على عموم النفي ، بدليل أَنَّ قولهم : ((لا رجلَ في الدار)) أَقوى في النفي من ((لا رجلٌ في الدار))، فلو لم يقدر معه الحرف الدال على استغراق الجنس لاشتركا في قوة النفي ، وليس الأَمر على ذلك عند النحويين)) .

((وحجة من قال بالإعراب من ثلاثة أوجه :

أَحدها : العطف على لفظه بالمعرب ، ووصفه على لفظه بالمعرب ، ولأَنَّ خبرها معرب وعملها فيهما واحد .

الثاني : أَنَّ العامل ليس له أنْ يُحدث بناء في الكلمة ، ولا أَنْ يُصيّرَ معربا مبنيا .

الثالث : أن الأصل الإعراب بدليل اطراده في المضاف والمطول))[٧٢].

---

[٧١] المغني في النحو ج٣ ص ٢٤٢ .

[٧٢] المغني في النحو ج٣ ص ٢٤٤ .

وهذا ما بحثه سيبويه في عدة مواضع من كتابه ، ولكن ابن فلاح نَسَّقَ المباحث وفصَّل القول فيها ، وذكر الحجج في بناء (لا) وإعرابها ، ويبدو أنّ معظم النحاة ذهبوا الى البناء ، قال الحريري : ((وعند النحويين أنَّ فَتحته فتحة بناء لا فتحة نصب))[٧٣].

وقال أَبو البركات الأنباري : ((بُنيت مع (لا) لأنَّ التقدير في قولك : ((لا رجلَ في الدار)) : ((لا من رجلٍ في الدار)) لأنه جواب قائل قال : ((هل من رجلٍ في الدار ؟)) فلما حُذفت من اللفظ وركبت مع (لا) تضمنت معنى الحرف ، فوجب أَنْ تُبنى ، وإنما بُنيت على الحركة لأَن لها حالة تمكنٍ في البناء ، وإنما كانت الحركة فتحة ؛ لأَنها أَخف الحركات))[٧٤].

فاسم (لا) يكون مرفوعا ، إنْ جاء مبنيا على الفتح ، فهو مُتحدث عنه أي مسند اليه ، ولكنّ ابراهيم مصطفى أنكر ذلك ، قال : ((يبدو أَول الأَمر أنه متحدث عنه ، وأَنه صدر جملة اسمية تامة ، والمتأمل يرى غير هذا ، فانّه ليس بعده من خبر ، ولا شيء يتحدث به ، تقول: ((لا ضيرَ)) و ((لا فوتَ)) و ((لا بأسَ)) فيمّ الكلام ، ويقدر النحاة خبرا محذوفا أَي : موجود وحاصل ، وهو لغو لا يزيد تقديره في المعنى شيئا)) . وبعد أن ذكر عدة آيات فيها (لا) قال : ((وإذَنْ الاسم بعد (لا) في هذا الاستعمال ليس بمتحدث عنه ، وحقه من الحركات الفتحة ولا شيء فيه من

---

(٧٣) شرح ملحة الإعراب ص ١٣١ .

(٧٤) كتاب أسرار العربية ص ٢٤٦ .

الإِشكال))[٧٥]. وبهذا الرأي حل الإشكال على الرغم من أنَّ ما ذكر من أَمثلة مثل : (لا ريبَ) و (لا بأسَ) لا تفهم من غير إخبار ، إلا إذا كانت جوابا لسؤال كأنْ يُقال : كيف أنت ؟ فيجيب المسؤول : (لا بأسَ) . ثم كيف تفهم الآيات التي ذكرها[٧٦] إذا قيل : (لا ريبَ) و (لاعِلْمَ) و (فلا عُدوانَ) و (لا إكراهَ) الى آخر ما ذكر، من غير ذكر الخبر ؟ .

وكان النحاة قد ذكروا أنَّ (لا) النافية للجنس تنصب المبتدأ وترفع الخبر ، فأين الخبر ؟ وكيف يتم المعنى بدونه سواء أكان مذكورا أَم مقدرا ؟ وكان ابن مالك قد قال :

عمــلَ إنَّ اجعــل للا في نِكره　　مفــردةً جاءتكَ أَو مكــرره

فانصِبْ بها مُضافا أو مضارِعَه　　وبعد ذاك الخبرَ اذكر رافعه

قال بهاء الدين عبد الله بن عقيل (-٧٦٩هـ) : ((وهي تعمل عمل (إنَّ) فتنصب المبتدأ اسما لها ، وترفع الخبر خبرا لها ، ولا فرقَ في هذا العمل بين المفردة ــ وهي التي لم تتكرر ــ نحو : ((لا غلامَ رجلٍ قائمٌ)) ، وبين المكررة نحو : ((لا حولَ ولا قوةَ إلا بالله)) . ثم قال : ((لا يخلو اسم (لا) هذه من ثلاثة أَحوال :

الحال الأول : أَنْ يكون مضافا نحو : ((لا غلامَ رجلٍ حاضرٌ)) .

الحال الثاني : أَنْ يكون مضارعا للمضاف أَي مشابها له ، والمراد به كل اسم تعلق بما بعده إما بعمل نحو (لا طالعا جبلا ظاهرٌ)) و ((لا خيرا من زيد راكبٌ)) . وإما بعطف نحو : (لا ثلاثةَ وثلاثين

---

[٧٥] إحياء النحو ص ١٤٠ وما بعدها .

[٧٦] ينظر إحياء النحو ص ١٣٧ ــ ١٣٨ .

عندنا)) ويسمى المشبَّه بالمضاف : مطولا وممطولا ، أي ممدودا ، وحكما المضاف والمشبَّه به النصب لفظا ــ كما مُثِّل .

الثالث : أنْ يكون مفردا والمراد به ــ هنا ــ ما ليس بمضاف ولا مُشبَّه بالمضاف فيدخل به المثنى والمجموع ، وحكمه البناء على ما كان ينصب به لتركبه مع (لا) وصيرورته معها كالشيء الواحد ، فهو معها كـــ (خمسةَ عشرَ) ، ولكن محله النصب بـــ (لا) لأنه اسم لها فالمفرد الذي ليس بمثنى ولا مجموع يُبنى على الفتح ، لأَن نصبه بالفتحة نحو ((لا حولَ ولا قوةَ إلاّ باللهِ)) والمثنى وجمع المذكر السالم يُبنيان على ما كانا ينصبان به ــ وهو الياء ــ نحو ((لا مُسلَمينِ لك)) و ((لا مَسلِمينَ لزيد)) فـــ (مُسلِمَينِ) و (مُسلِمينَ) مبنيان لتركبهما مع (لا) كما بُني (رجل) لتركبه معها))[٧٧].

لقد ورد اسم (لا) مبنيا على الفتح أَو منصوبا في القرآن الكريم ، كقوله تعالى : ((لا ريبَ فيه)) (البقرة ٢) وقوله : ((لا ملجأ من الله إلا اليه)) (التوبة ١١٨) وقوله : ((لا عاصمَ اليومَ من أَمْرِ اللهِ)) (هود ٤٣) وقوله : ((لا تثريبَ عليكم اليومَ)) (يوسف ٩٢) وغيرها كثير .

وجاءت في كلام العرب كذلك ، وحين استقرى النحاة هذا الكلام وجدوا أَنَّ (لا) النافية للجنس تنصب المبتدأ وترفع الخبر ، ويحذف الخبر توسعا إذا كان مفهوما أَو يدل عليه السياق ، أَما إِذا شُكَّ في فهمه فيجب ذكره كحديثه ــ صلى الله عليه وسلم ــ ((لا أحدَ أَغيرُ من اللهِ))[٧٨].

---

[٧٧] شرح ابن عقيل ج١ ص ٣٣٦ وما بعدها ، وينظر شرح التصريح ج١ ص ٢٣٥ .

[٧٨] جامع الدروس العربية ج٢ ص ٣٣٨ .

وذكر عباس حسن[٧٩] أمثلة كثيرة لا تفهم إِذا حذف الخبر مثل : ((لا قولَ زُورٍ نافعٌ)) و ((لا أنصارَ خيرٍ متنافرون)) و ((لا نصيحتَيْ إِخلاص أَنفعُ من نصيحة الوالدين)) و ((لا خائِنِي وطن سالمونَ)) و ((لا مهملاتِ عمل مكرماتٌ)) وهذه أمثلة المضاف ، وقد نصبت بالفتحة أَو بما ينوب عنها ، أَما أَمثلة الشبيه بالمضاف فهي: ((لا مرتفعا قدرُه مضمورٌ)) و ((لا بائعا دينَه بدنياه رابحٌ)) و ((لا خمسةً وعشرينَ غائبونَ)) و ((لا ساعيا وراء الرزق محرومٌ)) و ((لا قاعدا عن الجهاد معذورٌ)) و ((لا سائقين طيارة غافلانِ)) و ((لا حارِسِينَ بالليل نائمونَ)) و ((لا راغباتٍ في الشهرة مستريحاتٌ)) .

وهذه الأَمثلة لا تُفهم إِذا حُذفت الأخبار ، أو قد يقدرها السامع كما يشاء لا كما يريده المتكلم أو الكاتب ، وفي هذا خروج عن هدف اللغة الذي هو الفهم والإفهام .

لقد استُقْرِيَتْ أصول اللغة العربية ، وليس من التجديد تغييرها ؛ لأَنَّ ذلك يؤدي الى مسخ العربية التي نزل بها القرآن الكريم وتكلَّم بها الناسُ منذ قرون ، وليس من العبث أَنْ يضع القدماء قواعد تُنجي من الوقوع في الخطأ ، وكانوا قد قالوا إِنَّ الضمة للإسناد ، وإِنَّ الكسرة للإضافة ، وما عدا ذلك فحقه النصب لأَنه لا يدخل في الإسناد والإضافة ، ولم تكن الفتحة علامة إِعراب لخفتها فحسب بل لتميز المنصوبَ عن غيره، ولو كانت في العربية علاماتٌ أكثر من الضمة والفتحة والكسرة لوضع النحاة لكل باب علامةَ إِعراب .

---

[٧٩] النحو الوافي ج١ ص ٦٩١ ــ ٦٩٢ .

ومعاني الإِعراب تحددها ، وقد انتهى القدماء من البحث فيها ، ووضحوا مواقعها في الكلام ، وليس جديدا قول المعاصرين إنَّ الضمة للاسناد ، وإِن الكسرة للاضافة ، فقد قاله القدماء ، وأضافوا اليه أَنَّ الفتحة لما فضل من الاسناد والإِضافة ، ويكون تكملة للكلام لا يُستغنى عنه وإِن حُذف أحيانا ، ودلَّ عليه السياق .

المصـــــادر :

١. إِحياء النحو – إبراهيم مصطفى – القاهرة ١٩٥١م .
٢. الأَشباه والنظائر في النحو – جلال الدين السيوطي – تحقيق عبد العال سالم مكرم – بيروت ١٤٠٦هـ – ١٩٨٥م .
٣. الأُصول في النحو – أبو بكر محمد بن سهل بن السَّراج النحوي البغدادي – تحقيق الدكتور عبد الحسين الفتلي – الطبعة الثانية – بيروت ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م .
٤. الايضاح في علل النحو – أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزَّجاجيّ – تحقيق الدكتور مازن المبارك – الطبعة الثانية بيروت ١٣٩٣هـ ١٩٧٣م .
٥. تجديد النحو – الدكتور شوقي ضيف – الطبعة الثانية – دار المعارف – القاهرة .
٦. تيسير النحو التعليمي قديما وحديثا – الدكتور شوقي ضيف – دار المعارف – القاهرة ١٩٨٦م .

٧. جامع الدروس العربية ـ مصطفى الغلاييني ـ الطبعة التاسعة ـ بيروت ١٣٧٨هـ ـ ١٩٥٨م .
٨. الخصائص أبو الفتح عثمان بن جني ـ تحقيق محمد علي النجار ـ القاهرة ١٣٧١هـ ـ ١٩٥٢م .
٩. دلائل الإعجاز ـ عبد القاهر الجرجاني ـ تحقيق محمود محمد شاكر القاهرة ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م .
١٠. شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك ـ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ـ الطبعة السادسة ـ القاهرة ١٣٧٠هـ ـ ١٩٥١م .
١١. شرح ألفية ابن مالك ـ أبو عبد الله بدر الدين محمد بن مالك ـ تحقيق الدكتور عبد الحميد السيد محمد عبد الحميد . بيروت .
١٢. شرح التصريح على التوضيح ـ خالد بن عبد الله الأزهري ـ القاهرة ١٣٧٤هـ ـ ١٩٥٤م .
١٣. شرح الرضي لكافية ابن الحاجب ـ محمد بن الحسن الاسترابادي المعروف بالرضي ـ (القسم الأول ـ المجلد الأول والمجلد الثاني) تحقيق الدكتور حسن بن محمد بن إبراهيم الحفظي ـ الرياض ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م .
١٤. شرح الرضي لكافية ابن الحاجب ـ محمد بن الحسن الاسترابادي المعروف بالرضي ـ (القسم الثاني ـ المجلد الأول والمجلد الثاني) تحقيق الدكتور يحيى بشير مصري ـ الرياض ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م .
١٥. شرح المفصل ـ موفق الدين يعيش بن علي بن يعيش ـ القاهرة .

١٦. شرح ملحة الإعراب ـ أبو محمد القاسم بن علي الحريري البصري ـ تحقيق الدكتور فائز فارس ـ اربد ـ الأردن ـ ١٤١٢هـ ـ ١٩٩١م .
١٧. الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها ـ أبو الحسين احمد بن فارس ـ تحقيق مصطفى الشويمي ـ بيروت ١٣٨٢هـ ـ ١٩٦٣م .
١٨. صفوة التفاسير ـ محمد علي الصابوني ـ الطبعة السادسة ـ المانية الغربية ـ ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م .
١٩. العامل النحوي بين مؤيديه ومعارضيه ودوره في التحليل اللغوي ـ الدكتور خليل احمد عمايرة ـ الأردن ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٥م .
٢٠. علل النحو ـ أبو الحسن محمد بن عبد الله المعروف بابن الوراق . تحقيق الدكتور محمود جاسم الدرويش ـ بغداد ٢٠٠٢م .
٢١. في النحو العربي ـ قواعد وتطبيق على المنهج العلمي الحديث ـ الدكتور مهدي المخزومي ـ القاهرة ١٣٨٦هـ ـ ١٩٦٦م .
٢٢. في النحو العربي ـ نقد وتوجيه ـ الدكتور مهدي المخزومي ـ بيروت ١٩٦٤م .
٢٣. كتاب أسرار العربية ـ أبو البركات عبد الرحمن بن محمد بن أبي سعيد الأنباري ـ تحقيق محمد بهجة البيطار ـ دمشق ١٣٧٧هـ ـ ١٩٥٧م .
٢٤. كتاب الجمل في النحو ـ أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي ـ تحقيق الدكتور علي توفيق الحمد ـ بيروت ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م

٢٥. كتاب الرد على النحاة ــ أبو العباس احمد بن عبد الرحمن بن محمد بن مضاء اللخميّ القرطبيّ ــ تحقيق الدكتور شوقي ضيف ــ القاهرة ١٣٦٦هــ ــ ١٩٤٧م .
٢٦. كتاب سيبويه ، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر المشهور بسيبويه . تحقيق عبد السلام محمد هارون ــ القاهرة ١٣٨٥هــ ــ ١٩٦٦م .
٢٧. كتاب اللمع في العربية ــ أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي ــ تحقيق فائز فارس ــ الكويت .
٢٨. كتاب المقتصد في شرح الإِيضاح ــ عبد القاهر الجرجاني ــ تحقيق الدكتور كاظم بحر المرجان ــ بغداد ١٩٨٢م .
٢٩. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ــ أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري ــ الطبعة الثانية ــ القاهرة ١٣٧٣هــ ــ ١٩٥٣م .
٣٠. اللهجات العربية ــ الدكتور ابراهيم أنيس ــ القاهرة .
٣١. مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو ــ الدكتور مهدي المخزومي ــ بغداد ١٣٧٤هــ ــ ١٩٥٥م .
٣٢. معجم إِعراب ألَفاظ القرآن الكريم ــ مكتبة لبنان ــ بيروت ١٩٩٥م .
٣٣. المغني في النحو ــ تقي الدين أبو الخير منصور بن فلاح اليمني النحوي ــ تحقيق الدكتور عبد الرزاق السعدي ــ بغداد ١٩٩٩ ــ ٢٠٠٠م .
٣٤. المفصل في علم العربية ــ أَبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري ــ الطبعة الثانية ــ بيروت .

٣٥. من أسرار اللغة ـ الدكتور إبراهيم أنيس ـ الطبعة الثانية ـ القاهرة ١٩٥٨م .

٣٦. نحو التيسير ـ دراسة ونقد منهجي ـ الدكتور احمد عبد الستار الجواري ـ الطبعة الثانية ـ بغداد ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م .

٣٧. نحو المعاني ـ الدكتور احمد عبد الستار الجواري ـ بغداد ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م .

٣٨. النحو الوافي ـ عباس حسن ـ الطبعة الخامسة ـ دار المعارف ـ القاهرة ١٩٧٥م .

٣٩. همع الهوامع في شرح جمع الجوامع ـ جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي ـ تحقيق (ج١) عبد السلام محمد هارون والدكتور عبد العال سالم مكرم ـ الكويت ١٣٩٤هـ ـ ١٩٧٥م .

التعليم العالي ومتطلبات عصر العولمة

الدكتور داخل حسن جريو

عضو المجمع العلمي

الملخص :

ينبغي أن يشهد التعليم العالي تغييرا جذريا كي يستجيب بصورة أفضل لمتطلبات العصر في عالم يشهد تغييرات وتطورات كثيرة وسريعة جدا ، ويزداد فيه الترابط بين الدول وتأثير بعضها على بعضها الآخر في إطار اقتصاد العولمة ونشاط الشركات المتعددة الجنسيات وانتقال الأموال والقوى العاملة من بلد إلى آخر حسب حاجات سوق العمل بيسر وسهولة . ولعل ابرز هذه المتطلبات في الكثير من دول العالم ولاسيما الدول المتقدمة أن تستجيب برامج الجامعات ومناهجها الدراسية لتأمين تخريج ملاكات علمية قادرة على العمل في بيئات مختلفة دونما عناء لإعادة تأهيلهم أي أن يكونوا قادرين على الاندماج فورا في تلك المجتمعات ، وهذا يتطلب درجة عالية من التنسيق والتطابق في أساليب التدريس ومفردات المناهج الدراسية ، أي بعبارة أخرى تخريج ملاكات بمواصفات عالمية أكثر منها مواصفات محلية . ولا يقصد بالمواصفات العالمية هنا إلغاء الخصوصيات الوطنية لأي بلد من البلدان . لذا يتوقع أن يزداد الترابط بين الجامعات والمؤسسات الصناعية على الصعيدين المحلي والعالمي إذ لم يعد كافيا أن تتعاون الجامعات مع المؤسسات الإنتاجية في انجاز البحوث والدراسات وتوظيف نتائجها لتعزيز جهود التنمية في بلدانها ، بل أصبح عليها لزاما

أن تمد جسور التعاون مع مؤسسات صناعية كبيرة وقادرة على توظيف الإبداعات والانجازات العلمية والتقنية بصورة أوسع وأكثر شمولية . يتناول هذا البحث دراسة توجهات التعليم العالي في الدول المتقدمة في ظل العولمة المعاصرة .

المقدمة :

شهدت مؤسسات التعليم العالي في السنوات الأخيرة زيادات كبيرة بأعداد الطلبة في معظم دول العالم ، فقد إزداد عدد الطلبة الملتحقين بهذه المؤسسات من ٦٨,٦ مليون طالب وطالبة في العام١٩٩٠ /١٩٩١ إلى ١١٠ . ٧ مليون طالب وطالبة في العام ٢٠٠١ / ٢٠٠٢. ولم ترافق هذه الزيادة أية زيادة مماثلة في التخصيصات المالية . ولتخفيف أعباء التعليم العالي المالية المتزايدة عاما بعد آخر عن كاهل الحكومـــات ، قامت الحكومات في الكثير من البلدان بتشجيع فتح الجامعات الأهلية سواء أكانت جامعات وطنية أم جامعات أجنبية ، ونقلت بعض الدول مسؤولياتها التعليمية إلى المؤسسات التعليمية ، واكتفاء الحكومات بمهمات الإشراف والتوجيه والتمويل الجزئي ، ومنح المؤسسات التعليمية حرية أوسع برسم سياساتها التعليمية واتخاذ القرارات المناسبة لتنفيذها وخضوعها للرقابة والمساءلة .

وفي عصر العولمة أصبح التعليم العالي عابرا لحدود الدول بفضل انتشار شبكات المعلومات والاتصالات ومنظومات الحواسيب المختلفة ، وانتشار أساليب التعليم الإلكتروني والتعليم عن بعد . الأمر الذي نجمت عنه تحديات جديدة واجهتها المؤسسات التعليمية ، بسبب اختلاف النظم

الدراسية والبرامج التعليمية في البلدان المختلفة . مما يتطلب اتخاذ إجراءات فاعلة ومؤثرة لضبط جودة برامجها التعليمية وتأمين توافقها إلى أبعد حد ممكن مع المعايير الدولية .

كما شهد التعليم العالي تزايد أعداد الطلبة الدارسين في بلدان غير بلدانهم ، وهو أمر يتطلب تقييم مؤهلاتهم لتحديد المستويات الدراسية التي سيقبلون بها لمواصلة دراستهم في تلك البلدان . مما يستلزم وضع معايير اعتماد بجميع المؤسسات التعليمية .

وفي اقتصاد العولمة لم يعد كافيا إعداد الطلبة على وفق معايير جودة وطنية فحسب ، بل يجب أن تراعى معايير الجودة الإقليمية والدولية للتأكد من مدى رصانة المؤسسات التعليمية في كل بلد من البلدان وكفاءة برامجها مقارنة بالمؤسسات في الدول الأخرى ، ومدى أهلية خريجيها للعمل في الأسواق الدولية .

لذا فقد اهتمت المؤسسات التعليمية كثيرا بإجراءات إدارة الجودة الشاملة في التعليم العالي على وفق أسس ومعايير ومؤشرات نوعية ومهنية للتأكد من حسن أدائها لوظائفها وضمان جودة منتجاتها المتمثلة بإعداد الموارد البشرية التي يحتاج إليها سوق العمل على وفق المواصفات الإقليمية والدولية ، فضلا عن الدور الفاعل بإنماء المعرفة العلمية والتقنية وإثرائها ، ونشرها وتوظيفها لمصلحة بناء اقتصاد معرفي مزدهر قائم على الإبداع والابتكار .

التعليم العالي في العالم

شهد عقد التسعينيات من القرن المنصرم توسعا كبيرا في منظومات التعليم العالي في الكثير من دول العالم ، بعد أن أدركت حكوماتها ، الأهمية المتزايدة للتعليم العالي في جهودها المبذولة للنهوض ببلدانها ، وإيجاد فرص عمل مناسبة لمواطنيها ، وتأمين منافسة قوية لمنتجاتها في الأسواق المحلية والعالمية ، إذ أثبتت الوقائع أن المجتمعات المتعلمة أكثر قدرة من سواها بتحقيق معدلات تنموية عالية في جميع الميادين ، والتصدي بفاعلية لحل المشكلات التي تواجهها ، إذ باتت التنمية ترتبط ارتباطا وثيقا بالعلم والتقنية والمعرفة والقدرة على توظيف نتائجها ، لذا قامت هذه الحكومـــات باستحداث معاهد وكليات وجامعات حكومية وخاصة ، لنشر التعليم العالي على أوسع نطاق ممكن .

كما شهد العالم حركة انتقال واسعة للطلبة من بلد إلى آخر ولاسيما من الدول الأقل تطورا إلى الدول الأكثر تطورا طلبا للعلم والمعرفة والتزود بالمهارات التقنية . واتخذت بعض الدول إجراءات لتشجيع طلبتها الحاصلين على شهادات من جامعات أجنبية بالعودة إلى بلدانهم للإسهام بتنفيذ خططها التنموية وبناء صروح نهضتها وتقدمها ورقيها .

تشير بعض التقارير إلى أن الولايات المتحدة الأمريكية تقع في مقدمة الدول الأعلى تحصيلا علميا في العالم من حملة شهادة البكالوريوس ، إلا أن أقطارا أخرى باتت تتقدم عليها ضمن الفئة العمرية (٢٥- ٣٤ سنة) ، منها النرويج بنسبة ٣٧٪، وإسرائيل بنسبة ٣٤٪، وهولندة بنسبة ٣٢٪، وكوريا الجنوبية بنسبة ٣١٪، من حملة شهادة البكالوريوس من مجموع

سكانها ، في حين أن هذه النسبة تبلغ في الولايات المتحدة الأمريكية٣٠٪ . وتشهد حاليا دول كثيرة زيادة ملحوظة في أعداد خريجيها ، أبرزها روسيا وإسرائيل وبلجيكا وكندا وفنلندة والسويد . فعلى صعيد حاملي شهادة الدبلوم أو البكالوريوس تأتي روسيا في المقدمة ، تليها كندا واليابان وإسرائيل وكوريا الجنوبية والسويد وبلجيكا وايرلندة والنرويج والولايات المتحدة الأمريكية .

يبلغ عدد الكليات والجامعات الأمريكية حاليا أكثر من ٤٣٠٠ كلية وجامعة ،٧١ ٪ منها تمنح شهادة البكالوريوس أو شهادات علمية أعلى . منحت هذه الكليات والجامعات في العام الدراسي ٢٠٠٥ - ٢٠٠٦ أكثر من مليوني شهادة بكالوريوس أو شهادة أعلى ، منها ٦١٤ ألف شهادة في العلوم والهندسة .

تشير بعض الإحصاءات الدولية إلى أنه في العام ٢٠٠٤ تخرج قرابة ١١ مليون طالب وطالبة في دول العالم المختلفة ، أربعة ملايين منهم في التخصصات العلمية والهندسية ، موزعين بواقع ١،٧مليون طالب وطالبة من الجامعات الأوربية ، و٦٠٠ ألف طالب وطالبة من الجامعات في شمال أمريكا ووسطها ، ويتوزع الباقون على بقية جامعات دول العالم الأخرى . وعلى صعيد الدول تقع تايلاند في مقدمة الدول إذ تبلغ نسبة خريجيها في التخصصات العلمية والهندسية ٦٩٪ من إجمالي الخريجين ، تليها اليابان بنسبة ٦٣٪ ، وسنغافورة بنسبة ٥٩ ٪ ، ولاؤس بنسبة ٥٧ ٪ ، والصين بنسبة ٥٦٪، في حين أن هذه النسبة تبلغ في الولايات المتحدة الأمريكية قرابة ٣٣ ٪ . تبلغ نسبة الخريجين في العلوم الطبيعية وعلوم

الحياة وعلوم الحاسوب والعلوم الزراعية في أغلب دول العالم قرابة ١٢٪ من مجموع الخريجين .

بدأت الكثير من الدول بإعادة نظر جادة وشاملة ببرامجها الدراسية لتأمين تخريج ملاكات علمية وتقنية رفيعة المستوى العلمي في جميع التخصصات التي يحتاج إليها المجتمع ، ولاسيما تلك التخصصات التي تلامس حافات العلوم والتقنية المتقدمة ، لتأمين تفوقها في عالم اليوم الذي يشهد منافسة حادة بين الدول لامتلاك المعرفة ، بعد أن أصبحت المعرفة أحد أهم عناصر القوة في عالمنا المعاصر .

نستعرض هنا بعضا من هذه الدول ، فقد بدأت الصين حملة واسعة لتطوير برامجها التعليمية في أواخر عقد التسعينيات من القرن المنصرم ، تركزت هذه الحملة على تعزيز برامج التعليم العالي وتطويرها ، بعد أن رصدت المبالغ اللازمة لتطوير العملية التعليمية وتوفير متطلباتها الأساسية المادية والبشرية . أدت هذه الجهود إلى ازدياد حجم القبول في التعليم العالي من ٣٠٠ ألف طالب وطالبة في العام ١٩٩٨، إلى ١٣،٣ مليون طالب وطالبة في العام ٢٠٠٤، وزيادة عدد المعاهد التقنية والمراكز التدريبية من ١٠١ معهد ومركز إلى ٨٧٢ معهدا ومركزا ، وزيادة حجم القبول فيها إلى ٥، ٩٦ طالبا وطالبة ، أي ما نسبته ٤٥٪ من مجموع الطلبة المقبولين في الكليات للفترة ذاتها ، كما ازداد عدد خريجي كليات الهندسة أربعة أضعاف في العقدين الأخيرين .

وشهدت الهند توسعا كبيرا في حجم قبول الطلبة في مؤسسات التعليم العالي المختلفة ، إذ ازداد حجم القبول من ٢،٨ مليون طالب وطالبة عام

١٩٨٠ إلى ٩،٩ مليون طالب وطالبة عام ٢٠٠٣. واجهت الهند تحديات كثيرة جراء هذا التوسع ، تمثلت بتوفير البنى التحتية اللازمة لمنظومة التعليم العالي ، وسبل ضمان جودتها وكفاءة مخرجاتها ، مما نجم عنه تمايز واضح بين مؤسسات التعليم العالي الهندية . ولم يكن هذا التوسع متوافقا تماما مع حاجات السوق ، إذ إن هناك ١٧٪ من الخريجين عاطلون عن العمل ، وأن ٤٠ ٪ من الخريجين غير منتجين في أعمالهم كما يجب .

تشير بعض التقارير إلى تضاعف عدد خريجي الجامعات في الصين وكوريا الجنوبية وبريطانيا خلال الفترة من ١٩٨٥ إلى ٢٠٠٥ في التخصصات العلمية والهندسية . وازدياد عدد خريجي كليات الهندسة بمعدل أربعة أضعاف في الصين وثلاثة أضعاف في كوريا الجنوبية في العقدين الأخيرين .

شهدت السنوات الأخيرة زيادة عدد الخريجات في التخصصات العلمية والهندسية في الكثير من دول العالم ، إذ بلغ عدد النساء اللاتي يتخرجن سنويا من الجامعات الأوربية ما نسبته ٤٠٪ من مجموع الخريجين ، وأكثر من٥٠ ٪ في كندا واليابان والولايات المتحدة الأمريكية ، و٣٣ ٪ في الكثير من الدول الآسيوية والأفريقية . كانت حصة النساء الحاصلات على شهادة الدكتوراه في التخصصات العلمية والهندسية في عموم دول العالم في العام ٢٠٠٤ ما نسبته ٣٤ ٪ من مجموع الحاصلين على شهادة الدكتوراه بهذه التخصصات .

شهد العقدان الأخيران حراكا واسعا بانتقال الطلبة من الدول النامية إلى الدول الأكثر تطورا ، ومن الدول الأوربية والدول الآسيوية إلى

الولايات المتحدة الأمريكية . تعزى أسباب هذا الحراك إلى سعي الطلبة للحصول على فرص اقتصادية أفضل ، ولتوفر إمكانات مالية لتمويل بحوثهم ، وتوافر بيئات علمية محفزة للإبداع العلمي والتقني في البلدان التي ينتقلون إليها ، والقدرة على توظيف نتائج بحوثهم وتحويلها إلى منتجات مثمرة .

تشير الإحصاءات إلى أن ٢٢ ٪ من مجموع الطلبة الأجانب الراغبين بالدراسة خارج بلدانهم في العام ٢٠٠٤، قد وصل إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، و١١٪ منهم إلى بريطانيا ، و١٠٪ إلى ألمانيا، و ٩٪ إلى فرنسا . ومن المؤسف حقا أن الكثير من هؤلاء الطلبة يستقرون بصورة نهائية في البلدان التي انتقلوا إليها ، وبذلك يؤدي إلى حرمان بلدانهم من خبراتهم العلمية والتقنية التي اكتسبوها والتي هي بأمس الحاجة إليها .

تشير الإحصاءات إلى أن ٤١ ٪ من الأجانب المهاجرين إلى الولايات الأمريكية قد حصلوا على شهاداتهم العليا من خارج الولايات المتحدة الأمريكية . وتشير بعض التقارير إلى أن ٦٥ ٪ من الأجانب الحاصلين على شهادة الدكتوراه في التخصصات العلمية والهندسية من الجامعات الأمريكية في العام ٢٠٠٥ قد استقروا في الولايات المتحدة الأمريكية ولم يعودوا إلى بلدانهم .

تسعى المؤسسات الأمريكية إلى تشجيع الطلبة الأجانب الذين يدرسون في الجامعات الأمريكية ولاسيما النابغين منهم بالبقاء في الولايات المتحدة بعد إكمال دراستهم . وكذلك تشجيع العلماء البارزين في بلدانهم بالقدوم إليها عبر منحهم الكثير من التسهيلات والمنح المالية لإنجاز بحوثهم في

الجامعات ومراكز البحوث الأمريكية ، إذ تشير إحدى الدراسات المنشورة عام ٢٠٠٣ إلى أن عدد العلماء والمهندسين الأجانب في الولايات المتحدة الأمريكية يبلغ أكثر من ٢،٢ مليون عالم ، منهم ٢٧٦ ألف عالم من حملة شهادة الدكتوراه ، أغلبهم من الصين بنسبة ٢٢٪ ، والهند بنسبة ١٤٪. تبلغ نسبة الباحثين الأجانب العاملين في مراكز ماكس بلانك الألمانية للبحوث ٢٨٪ من مجموع الباحثين العاملين في تلك المراكز في العام ٢٠٠٦ .

التعليم العالي في البلاد العربية

لا يختلف الحال كثيرا في الدول العربية عن دول العالم الأخرى ، إذ يشير تقرير التنمية في منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا الصادر من البنك الدولي عام ٢٠٠٧ إلى أن دول الشرق الأوسط وشمال أفريقيا قد بذلت جهودا حثيثة لتطوير التعليم بمستوياته المختلفة ، إذ خصصت هذه الدول على مدى الأربعين سنة الماضية نسبة (٥٪) من إجمالي الناتج المحلي ، ونسبة (٢٠٪) في المعدل من النفقات الحكومية للتعليم ، وهذه النسب تفوق النسب التي خصصتها الدول النامية الأخرى ، ونتيجة لذلك فقد حققت هذه الدول بصورة عامة مستوى الالتحاق الكامل في مرحلة التعليم الابتدائي ، وازدادت معدلات الالتحاق في المدارس الثانوية ثلاثة أمثال بين عامي١٩٧٠ و٢٠٠٣م ، وازدادت خمسة أمثال في مرحلة التعليم العالي ، وأصبحت المساواة بين الجنسين شبه كاملة في مرحلة التعليم الأساسي ، وعلى الرغم من هذه الجهود فإن قطاع التعليم عامة وقطاع التعليم العالي خاصة ما زال يعاني من مشكلات كثيرة أبرزها الآتي :

١. ما زال معدل محو أمية البالغين منخفضا في الكثير من دول المنطقه .

٢. ارتفاع معدلات التسرب من التعليم .

٣. معدلات البطالة عالية بين الخريجين ، وذلك لضعف الصلة بين التعليم ومتطلبات سوق العمل ، إذ لا ينتج التعليم المهارات المطلوبة التي تحتاج إليها السوق .

٤. تدني مستوى التعليم مقارنة بالدول الأخرى كما يلاحظ ذلك من خلال الدرجات المنخفضة نسبيا التي تسجل في الاختبارات الدولية.

٥. يتخرج ثلثا الطلاب في أكثر من نصف دول المنطقة في مجالات العلوم الاجتماعية والدراسات الإنسانية ، بخلاف ما عليه الحال في دول شرق آسيا مثلا .

٦. انخفاض معدلات العائد من التعليم العالي ، إذ لم يسهم التحصيل التعليمي في دول الشرق الأوسط ودول شمال أفريقيا كثيرا في زيادة النمو الاقتصادي أو الإنتاجية ، مما أدى إلى ارتفاع التوظيف في القطاع العام .

٧. مازال التعليم في دول الشرق الأوسط وشمال أفريقيا تقليديا في مناهجه وطرائق تدريسه .

٨. ما زال التعليم في الكثير من هذه الدول تعليما مغلقا ، أي لا تتاح فيه الفرص الكافيـــة للانتقال من مستوى دراسي إلى آخر .

٩. ما زال تمويــل التعليم الخــاص متــواضعا في معظم هــذه الدول .

١٠. تهيمن اللغة العربية والتاريخ والدين على المناهج الدراسية متفوقة بذلك على الرياضيات والعلوم والتقنية .

ويشير التقرير إلى أن معدل البطالة في منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا (٤ ٪) وهو الأعلى في العالم ولاسيما بين الشباب (عدا منطقة أفريقيا جنوب الصحراء) ، ففي مصر وسورية على سبيل المثال ، يشكل الشباب العاطلون عن العمل أكثر من ٦٠٪ من مجموع العاطلين عن العمل ، كما تعتبر منطقة الشرق الأوسط من بين المناطق التي لديها أكبر مجموعات من الشباب في العالم التي تقع في الفئتين العمريتين (٠ – ١٤) سنة بنسبة (٤٥٪) من مجموع السكان و(١٥ – ٢٤) سنة بنسبة (٢١٪) ، الأمر الذي يزيد الطلب على التعليم والعمل ، وتفاقم مشكلاته بصورة أكبر ، ما لم يتم التصدي لها عبر نظام تعليمي مرن وكفوء ، وارتباط شديد بمتطلبات سوق العمل . ولهذا الغرض لابد من إصلاح التعليم وإعادة نظر شامل وجاد في أساليب التدريس ومناهجه وطرائقه ، كي يستجيب بصورة أفضل لحاجات المتعلمين ومتطلبات سوق العمل .

يشير المفكرون وصناع القرار في الدول الصناعية الكبرى إلى أهمية التعليم في التنمية بأنها تفوق أهمية رأس المال والمواد الأولية ، وهم يتحدثون الآن أكثر من أي وقت مضى عن أهمية دور العمال المتعلمين في التنمية ، وكذلك عن المجتمعات المسندة بالتعليم . وتعتمد الشركات في تلك البلدان على قوة عمل قليلة العدد نسبيا ، ولكنها عالية التأهيل والتدريب إذ باتت هذه الشركات تتعامل مع التعليم ضمن مفاهيم الربح والخسارة ذلك إنها أدركت أن تأهيل العمال ذوي المؤهلات العلمية العالية لأداء وظائفهم ذات التقنيات العالية وتطوير قدراتهم فيما بعد لمواكبة تطوراتها إنما يتطلب استثمارات مالية اقل كثيرا مما يتطلبه الحال بالنسبة للعمال ذوي المؤهلات الأدنى . وتشير الدراسات إلى أن فرص العمل تتحسن كثيرا بتحسن مستويات التعليم ، ففي الولايات المتحدة الأمريكية مثلا وجد أن نسبة البطالة كانت أعلى لخريجي الدراسة الثانوية منها لخريجي الكليات والجامعات ، ولا يختلف الحال في اليابان والدول الصناعية الكبرى .

وتتسع الهوة باستمرار بالنسبة للأجور بحسب المؤهلات العلمية إذ كانت نسبة فرق الأجور في الولايات المتحدة الأمريكية بين حملة المؤهلات الجامعية وسواهم قرابة ٨٦٪. وتشير تقديرات منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية إلى أن هنـــاك أكثر من (٢٠) مليون عاطل عن العمل ، إضافة إلى (٣٨) مليون شخص تحت خط الفقر في أوربا الغربية في الوقت الحاضر، كما قدر عدد الأميين في أوربا عام ١٩٩٥ بأكثر من مليون شخص ، أما عدد الأمريكيين بين عمر (٢١-٢٥) سنة ممن لا

يجيدون القراءة والكتابة فتبلغ نسبتهم نحو ٥٪ من مجموع سكان الولايات المتحدة الأمريكية ، ويبلغ عدد الأميين الكبار في العالم نحو (٨٨٥) مليون شخص نصفهم في الهند والصين .

تبذل الدول المختلفة جهودا حثيثة لتحسين نظمها التعليمية وتوسيع فرص الاستفادة منها لجميع الشرائح الاجتماعية ولاسيما القوى العاملة بهدف رفع كفاءتهم الإنتاجية ، وأصبحت برامج التعليم المستمر والتعلم مدى الحياة جزءا أساسيا من برامج التطوير المهني لجميع العاملين في المؤسسات الإنتاجية لضمان مواكبتهم لمستجدات العلوم والتقنية والقدرة على الاستجابة السريعة لمتطلبات سوق العمل .

أصدر المركز الوطني للتعليم والاقتصاد في الولايات المتحدة الأمريكية مؤخرا دراسة بعنوان : (الأوقات الصعبة أو الاختيارات الصعبة) تناولت الدراسة التحديات التي يواجهها نظام التعليم الأمريكي وسبل معالجتها من قبل صناع القرار ورجال التربية والتعليم ورجال الأعمال والمواطنين الذين يسعون إلى بناء المجتمع الأمريكي الغني والقادر على منافسة المجتمعات الأخرى في القرن الحادي والعشرين من موقع القوة والاقتدار ، وتؤكد أهمية أن تكون قوة العمل الأمريكية هي القوى الأفضل تعليما وتدريبا في العالم ، وهذا يتطلب وضع خريطة طريق لتطوير جميع مستويات التعليم بدءا برياض الأطفال ومرورا بالدراسة الابتدائية والثانوية وصولا إلى التعليم العالي ، ليصبح التعليم برمته قادرا على مواجهة تحديات اقتصاد العولمة السريع التغيير ، الأمر الذي يستلزم تغييرات جوهرية في بنية التعليم ونظمه ، والمناهج الدراسية ، وإعداد

المعلمين وهيئات التدريس ، وتؤكد الدراسة أيضا أهمية تعليم الكبار مدى الحياة في إطار برامج التعليم المستمر لمواجهة متطلبات العمل التي تشهد تطورات مستمرة . ويؤكد التقرير ثلاثة أمور أساسية لإعداد قوى عاملة ذات كفاءة عالية هي :

١. التعليم .

٢. التدريب .

٣. التنمية الاقتصادية .

أي خلق تنمية اقتصادية مستندة إلى مهارات عمل عالية المستوى لضمان تفوق الاقتصاد الأمريكي في ضوء المنافسة الحادة التي يواجهها من اقتصاديات الدول المتقدمة الأخرى .

وتكتسب هذه الدراسة أهمية لا تقل عن أهمية الدراسة السابقة التي صدرت في عقد الثمانينيات من القرن المنصرم بعنوان : (أمة في خطر) ، وهي الدراسة التي أحدثت دويا هائلا ليس في الولايات المتحدة حسب ، بل العالم أجمع ، إذ إنها كانت موضع اهتمام رجال السياسة ورجال الأعمال والعلميين على حدٍ سواء .

تشير الدراسة إلى التقرير الذي أعده المركز عام ١٩٩٠م بعنوان اختيار القوى العاملة الأمريكية بين المهارات العالية أو الأجور المتدنية . إذ يوضح هذا التقرير نمو قوة العمل ذات الأجور المتدنية في اقتصاد العولمة ، الأمر الذي ينجم عنه ضياع فرص العمل على الدول ذات الأجور العالية ، مما يعني فقدان القوى العاملة الأمريكية لكثير من فرص عملها ، وحيث أن الولايات المتحدة الأمريكية لا تستطيع مجاراة الدول

الأخرى بمستويات أجور عمالها المتدنية ، لذا أصبح لزاما أن تسعى إلى التركيز على المهن والخدمات ذات القيمة الاقتصادية العالية ، مما يتطلب نظام تعليمي متطور لإعداد قوى عاملة مدربة جيدا وقادرة على المنافسة في الأسواق المحلية والعالمية في اقتصاد العولمة الذي بات يتجاوز الحدود الدولية لجميع بلدان العالم .

كانت الولايات المتحدة الأمريكية حتى وقت قريب تفخر بأنها تمتلك أفضل قوة عمل متعلمة ومدربة في العالم ، إلا أن الحال بات مختلفا الآن إذ تواجه الولايات المتحدة تحديات كبيرة من دول كثيرة أبرزها الصين والهند التي باتت تمتلك قوى عاملة متعلمة ومدربة جيدا ، ومستعدة للعمل بأجور متدنية قياسا إلى أقرانها في الولايات المتحدة ، كانت الولايات المتحدة قبل (٣٠) عاما تفخر بأنها تمتلك (٣٠٪) من خريجي الكليات في العالم ، في حين أن هذا العدد قد انخفض الآن إلى (١٤٪) وما زال العدد في تناقص مستمر ، وتزداد أعدادهم في الوقت نفسه في الدول الأخرى ، فضلا عن تحسن برامج تعليمهم وتطورها المستمر .

يشير التقرير إلى أن ترتيب تحصيل الطلاب الأمريكيين في الرياضيات والعلوم والثقافة العامة يقع بين أسفل السلم ومنتصفه قياسا إلى الدول الصناعية المتقدمة . وتزداد الأمور تعقيدا إذ أصبح بمقدور المؤسسات الصناعية في أية دولة من الدول الاستعانة بالقوى العاملة في الدول الأخرى بسهولة ويسر ، وذلك بفضل تقنيات الاتصالات وشبكات المعلومات من دون أن يتطلب ذلك استقدامهم من دولهم ، وإنما بإمكانهم إنجاز مهام عملهم عن بعد ، وهم في أماكنهم الأمر الذي يتيح للمؤسسات

اختيار أفضل عناصر قوة العمل واقلها تكلفة في موازنة دقيقة بين الكفاية والأجور . وتقـدر إحدى الدراسات أن عدد الأشخاص العاملين بهذه الطريقـة عن بعد في أوربا مثـلا يبلغ حاليا أكثر من عشرة ملايين شخص .

ويتوقع الخبراء أيضا مرونة عمل اكبر أي الانتقال من عمل إلى آخر وعدم الاستقرار في عمل واحد محدد قد يمتد مدى الحياة ، كما يتوقع الخبراء ازدياد حالات العمل الجزئي والعمل على وفق عقود قصيرة الأمد ، وكذلك العمل في البيوت ، والعمل الفردي . تشير إحدى الدراسات إلى أن هناك ٥٠ مليون عامل في الولايات المتحدة الأمريكية أي ما يقارب ٤٠٪ من قوة العمل يبدلون أعمالهم وأماكن عملهم كل عام . وهذا يتطلب تدريب أفراد القوى العاملة وإعادة تدريبهم باستمرار في عالم تشهد فيه المعرفة نموا انفجاريا بصورة أسية في المفاهيم الرياضية المتعارف عليها في الأوساط العلمية .

يشير مكتب العمل في الولايات المتحدة الأمريكية إلى انه في العام ١٩٥٠ كان هناك واحد من كل خمسة عمال يصنف على انه ماهر ، ليصبح في العام ١٩٩١ ما نسبته ٤٥٪ من قوة العمل و٦٥٪ في العام ٢٠٠٠ مؤشرا على تزايد أهمية التدريب والتأهيل في بناء القدرات العلمية ، إذ بات النشاط الاقتصادي يعتمد على القوى العاملة المدربة أكثر من اعتماده على أي شيء آخر .

تستغل الشركات الأمريكية حاليا مواهب علمية من بلدان مختلفة من دون أن تتطلب دوامهم في أماكن عمل محددة ، أو حتى ساعات عمل

محددة . تشير بعض التقارير إلى أن قرابة ٤٠٪ من موظفي شركة أي بي أم الأمريكية العملاقة لا يداومون في مقرات عملهم ، وليس لديهم ساعات عمل محددة ويتواصل هؤلاء الموظفون بعضهم ببعض وبمقرات الشركة بواسطة البريد الإلكتروني وعبر الهواتف والرسائل الفورية والمؤتمرات عبر الأقمار الصناعية ومواقع شبكة المعلومات الدولية . ولا يختلف الحال كثيرا في الشركات الأخرى في الولايات المتحدة الأمريكية أو البلدان الصناعية الكبرى . ويلاحظ أيضا ازدياد عدد الأشخاص المحليين الذين يتولون مسؤوليات قيادية في الشركات الأمريكية والشركات المتعددة الجنسيات العاملة في البلدان الأخرى وذلك بسبب تدني أجورهم مقارنة بأقرانهم الأمريكيين .

كما تستغل الولايات المتحدة الأمريكية الكفاءات العلمية والهندسية العالمية بوسائل وأساليب شتى لحساب مؤسساتها الصناعية ، وتشجع طلبة العلوم الهندسية الدارسين في جامعاتها على البقاء لديها ، وعدم العودة إلى بلدانهم التي بها أمس الحاجة لخدماتهم ، إذ تشير الدراسات إلى أن نسبة ٤٠٪ منهم فقط يعودون إلى بلادهم . كما أن الشركات الأمريكية العملاقة وفروعها المنتشرة في بلدان عديدة تقدم الإغراءات لجذب أفضل القدرات الهندسية في تلك البلدان ، فشركات صناعة السيارات تستخدم المهندسين الأوربيين لقدراتهم التصميمية العالية ، وتستخدم الشركات الإنشائية الأمريكية مهندسين مدنيين من كوريا الجنوبية ، وتستخدم شركات صناعة الحاسوب والبرمجيات مهندسي البرمجيات الهنود بأعداد كبيرة . ويشير رجارد مورو رئيس الأكاديمية الهندسية الأمريكية إلى أن التحدي المتزايد

الذي يواجه التعليم الهندسي في الولايات المتحدة هو إيجاد الوسائل والطرق الكفيلة بضمان بقاء الولايات المتحدة الأمريكية في المقدمة وذلك بتدريب المهندسين الشباب ليقدموا أكثر مما يقدمه أقرانهم في الدول الأخرى ، وان تحدي العولمة الاقتصادي بالنسبة للولايات المتحدة الأمريكية إنما هو تحدي تعليم هندسي كما هو تطور صناعي .

ومن نتائج اقتصاد العولمة الأخرى تحول المؤسسات الصناعية من *أسلوب التصنيع المتكامل حيث تقوم المؤسسة الصناعية بإنجاز* جميع خطوات التصنيع (وكانت الولايات المتحدة رائدة في هذا المجال) إلى أسلوب التصنيع المتفرق ، أي بإحالة تصنيع الأجزاء المختلفة إلى شركات مختلفة بحسب قدراتها التقنية وأسعارها التنافسية ، وتجميعها في المؤسسة المعنية بإنتاج السلعة المطلوبة ، وهي اليوم رائدة في هذا المجال أيضا بحسب ما ورد في التقرير ، وقد يعني أسلوب التصنيع الجديد هذا، تصنيع مواد في دول أخرى بتكاليف أقل من تصنيعها في الولايات المتحدة ، مما ينجم عنه فقدان فرص عمل الأمريكيين في عقر دارهم .

كما زادت عملية الأتمتة عمليات التصنيع أي تصنيع الكثير من المواد بواسطة المكائن والآلات بعد برمجتها من قبل الحواسيب ومنظومات السيطرة الرقمية تلقائيا ، ولاسيما المواد المراد تصنيعها بصورة تكرارية ، وقد نجم عن عمليات الأتمتة الصناعية هذه فقدان الكثير من العاملين لوظائفهم ولاسيما ممن يؤدون أعمالا صناعية تكرارية .

وفي ضوء ما تقدم لابد من إعادة نظر شامل في النظام التعليمي برمته بحيث يصبح قادرا على تنمية مهارات الخلق والإبداع لدى

المتعلمين ، وترك تنفيذ الأعمال التكرارية للمكائن والآلات المؤتمتة ، وتنمية مداركهم العلمية وفهم أفضل لما حولهم بتقوية مهاراتهم التقنية وقدراتهم اللغوية وتوسيع ثقافتهم العامة ، وتدريبهم على امتلاك أدوات وأساليب الاستقــراء والتحليل المنطقي واستخــلاص النتائج العلمية ، والانضباط والعمل بروح الفريق ، والتأقلم السريع مع متغيرات ومتطلبات سوق العمل في عالم متغير .

تشخص الدراسة الأمريكية بعض نقاط ضعف النظام التعليمي في الولايات المتحدة بالآتي :

١. لايجذب النظام التعليمي الطلبة المتفوقين للدراسة في كليات المعلمين ، إذ أن معظم المعلمين من الطلبة غير المتميزين بدراستهم الثانوية .
٢. التساهل بفاقد العملية التعليمية الكبير .
٣. ضعف كفاءة العملية التعليمية المتأصلة في النظام التعليمي .
٤. التباين في مدخولات الأُسر وانعكاس ذلك على العناية بتعليم أبنائهم .
٥. الإخفاق في حفز الطلبة على التعلم .
٦. ضعف حوافز المعلمين .
٧. ضعف الاهتمام بالإبداع ، وإنما التركيز على حفظ المواد الدراسية واسترجاعها .
٨. تفشي البيروقراطية في النظام التعليمي .
٩. ضعف الاهتمام بتعليم الكبار لمواكبة تطورات العلوم والتقنية .

وقد أوصت الدراسة بالآتي :

١. إعادة نظر شاملة بنظام الامتحانات للقبول في الكليات والجامعات .

٢. استخدام الموارد المالية المتاحة للتعليم بصورة أفضل .
٣. جذب الطلبة من الثلث الأول من خريجي المدارس الثانوية للالتحاق بسلك التعليم ، وتدريبهم لوظائف التعليم المختلفة ، وتحسين رواتبهم وظروف عملهم .
٤. إعداد مناهج دراسية تعكس احتياجات الحاضر ومتطلبات المستقبل .
٥. إيجاد نظام تعليمي مدروس عالي الجودة ، يتناغم ومتطلبات الحياة المعاصرة في عالم يشهد تنافسا حادا لإمتلاك ناصية العلم وحلقات التقنية المتقدمة ، بهدف تأمين فرص العمل لجميع مواطنيها ، ورفع مستوياتهم المعيشية .
٦. توفير رياض أطفال ذات نوعية تعليمية عالية .
٧. مساعدة الطلاب الأكثر حاجة للمساعدة ، وتوفير الفرص والموارد اللازمة لنجاح الطلبة على وفق المعايير الدولية .
٨. تشجيع القوى العاملة على اكتساب المهارات التقنية المستجدة باستمرار وحفزهم على التعلم مدى الحياة في إطار برامج التعليم المستمر والتعلم الذاتي .
٩. تدريب القوى العاملة وإعادة تدريبها طبقا لحاجات السوق المتجددة .
١٠. الاهتمام بالمهن المستندة إلى التقنيات الحديثة .

التعليم التقني

أدرك الكثير من قادة الحكومات وصناع القرار في الكثير من دول العالم أن التعليم التقني يعد أحد أهم مرتكزات التنمية ومحركها الأساسيّ ، إذ لا يمكن لأي بلد من البلدان تحقيق أي تقدم حقيقي ما لم يمتلك ناصية

العلم وحلقات التقنية ولاسيما حلقات التقنية المتقدمة ، كما أنه لايمكن امتلاك التقنية إلا من خلال منظومة تعليم تقني راقية وقادرة على تخريج ملاكات تقنية عالية التأهيل ورفيعة المستوى العلمي على وفق متطلبات سوق العمل ، إذ بات العمال ذوو المهارات التقنية العالية يؤدون دورا هاما بزيادة الإنتاج والإنتاجية وتحقيق وتائر تقدم عالية في جميع مرافق الحياة .

شهد النصف الأخير من القرن العشرين ازدياد العاملين ذوي المهارات التقنية بمعدل ثلاثة أضعاف الزيادة في المهن الأخرى في معظم الدول الصناعية . قدر عدد العاملين ذوي المهارات التقنية في الولايات المتحدة الأمريكية على سبيل المثال في العام ٢٠٠٦ قرابة ١٢ مليون عامل ، خمسة ملايين منهم حاصلون على شهادة البكالوريوس ، ويتوقع بعض الخبراء ازدياد عدد العمال ذوي المهارات التقنية بنسبة ٢٦٪ خلال الأعوام ٢٠٠٤ - ٢٠١٤، مقابل ١٣٪ في المهن الأخرى. يتقاضى هؤلاء العمال في العادة أجورا أعلى من العاملين في المهن الأخرى . يمثل هؤلاء العمال طيفا واسعا من العمال المهرة والتقنيين والمهندسين والباحثين والاستشاريين ومديري التسويق والمديرين الماليين وغيرهم .

تعد المعاهد والكليات التقنية وكليات العلوم والهندسة المصدر الرئيس لرفد المجتمع بالقوى العاملة ذات المهارات التقنية بأنواعها المختلفة . لذا اهتمت معظم الدول بالتعليم التقني لتلبية حاجاتها من الملاكات لتنفيذ خططها التنموية ، ولتأمين المنافسة لمنتجاتها في الأسواق المحلية والعالمية .

تمتلك الولايات المتحدة الأمريكية نظاما تعليميا تقنيا يتسم بالجودة والمرونة العالية والارتباط الشديد بمتطلبات سوق العمل ، يعود تاريخ هذا التعليم إلى القرن الثامن عشر عندما استحدثت المدارس الصناعية أول مرة في ولاية فيلادلفيا ، انتشرت بعدها بنهاية القرن التاسع عشر في معظم المدن الأمريكية الكبرى . وبفضل برنامج خاص تبنته الحكومة الفيدرالية الأمريكية انتشرت الكليات الهندسية والزراعية خلال الأعوام ١٨٦٢ – ١٨٩٠ في جميع الولايات الأمريكية. كما أنشأت الحكومة الأمريكية مراكز إرشاد وتوجيه المزارعين في جميع أرجاء الولايات المتحدة الأمريكية للاستفادة من نتائج البحوث والتقنيات الحديثة لتطوير أساليب الزراعة وتحسين منتجاتها .

بلغ عدد الطلاب الملتحقين بالمعاهد التقنية الأمريكية في العام الدراسي ٢٠٠٤/ ٢٠٠٥ أكثر من ٦،٣ مليون طالب وطالبة،٦٠٪ منهم يدرسون بنظام التعليم الجزئي ، أي الجمع بين العمل والدراسة في آن واحد . يعتقد رجال الصناعة الأمريكيون أن تحسين فرص منافسة الاقتصاد الأمريكي في عالم اقتصاد العولمة ، إنما يتوقف على إعداد القوى العاملة التي تمتلك قدرات إضافية تتجاوز قدراتها المهارية والتقنية في مجال تخصصها ، من هذه المهارات : القدرة على التواصل مع الآخرين ، والقدرة على العمل الجمعي ، والتفكير المبدع ، وتداخل المهارات الشخصية، والتحلي بأخلاقيات المهنة في العمل ، والقدرة على التعلم الذاتي ، والقدرة القيادية .

تشير الإحصاءات حاليا إلى أن الولايات المتحدة الأمريكية تقع في مقدمة الأقطار التي تملك قوة عمل مستندة إلى المؤهلات العلمية والهندسية بنسبة ٢٦ ٪ من إجمالي قوة العمل الدولية ، تليها الصين بنسبة ١١٪ ، والهند بنسبة ٨٪ ، وروسيا بنسبة ٧٪ ، واليابان بنسبة ٦ ٪. وعلى الرغم من القدرات التقنية العالية التي تمتلكها الدول الصناعية الكبرى فإنها تسعى بشتى الوسائل والإغراءات إلى جذب القوى العاملة ذات المهارات التقنية العالية من الدول الأخرى ، منها تسهيل دخولها إليها ، فعلى سبيل المثال منحت كندا في العام ٢٠٠٥ أكثر من ١٨٩ ألف تأشيرة دخول لحملة الشهادات الجامعية، ومنحت اليابان في العام ٢٠٠٣ أكثر من ٢٦٨ ألف تأشيرة دخول للقوى العاملة العالية المهارة بزيادة ٩٣٪ عن العام ١٩٩٢، ولغرض المقارنة فإن هذا العدد يساوي نصف عدد خريجي الجامعات اليابانية الداخلين إلى سوق العمل .

ولأجل النهوض بالتعليم التقني في البلاد العربية لابد من اعتماد منظومة تعليم مهني وتقني تتسم بالجودة والمرونة ، والقدرة على استيعاب جميع المتغيرات والتطورات التقنية ، وتنظيمها في برامج تعليمية ، يراعى فيها حاجات المتعلمين وظروف عملهم من دون إعاقة سير عمل مؤسساتهم ، فضلا عن توفير فرص التعليم مدى الحياة إذ باتت المجتمعات المعاصرة تتطلب أن يتعلم الناس بصورة مستمرة لمواكبة مستجدات العلوم والتقنية لتأمين فرص عمل مناسبة لهم ، وتلبية حاجات هذه المجتمعات في مجالات الحياة المختلفة لتعزيز قدرات بلدانهم الاقتصادية وتحقيق تنميتها الشاملة. وهو أمر يتطلب أن تواكب مؤسسات التعليم التقني هذه

المتغيرات بصورة مستمرة ، وأن تطور مناهجها وبرامجها ونظمها الدراسية لتوفير الفرص التعليمية لأوسع الشرائح الاجتماعية مدى الحياة ، ذلك أن قوة أي نظام تعليمي تقني رصين تكمن في مدى قدرته على الاستجابة لحاجات المتعلم ، ومراعاة ظروف عمله أي أن يكون بوسع الطالب الجمع بين الدراسة والعمل (إن رغب في ذلك) من دون الحاجة إلى تفرغه التام للدراسة ، كما أنه ليس ضروريا في جميع الأوقات أن تفضي دراسته للحصول على شهادة ولاسيما في برامج التعليم المستمر ، وأن يكون هذا التعليم ملبيا متطلبات سوق العمل من المهن المختلفة ، وقادرا على التكييف مع حركة تطور العلوم والتقنية ومستجداتها في حقول المعرفة المختلفة ، وترشيد نفقاته الآخذة بالازدياد عاما بعد آخر ، مما يتطلب إيجاد مصادر تمويل مناسبة بصورة مستمرة . لذا لم يعد بالإمكان اعتماد صيغ تعليمية جامدة بدعاوى الرصانة والحفاظ على المستوى العلمي في إطار المفاهيم التقليدية في التعليم الذي يعتمد بصورة أساسية على تلقين المعلم المعرفة إلى المتعلم في قاعات الدرس من خلال المحاضرات ، بل بات اليوم ضروريا أن يكون المتعلم ذاته عنصرا أساسيا في عملية التعليم والتعلم ، ومن هذا المنطلق لابد أن تسعى مؤسسات التعليم التقني باستمرار إلى فحص برامجها التعليمية والعمل على تنويعها ، وفحص جدواها وقياس كفاءتها وجودة مخرجاتها . ومما يؤسف له حقا أن التعليم التقني في معظم الأقطار العربية لم يلْقَ بعد الاهتمام الكافي . ولأجل النهوض بقطاع التعليم التقني لابد من تحقيق الآتي :

١ . تعزيز الشراكة بين القطاع العام والقطاع الخاص في مجالات التعليم المختلفة .

٢ . توسيع صلاحيات المؤسسات التعليمية .

٣ . ربط التمويل بالنواتج والابتكار.

٤ . الفحص المستمر لأداء الخريجين في حقل العمل للتأكد من مواءمة تحصيلهم العلمي لمتطلبات العمل ، وعدم إسهامهم فيما بات يعرف بالبطالة المقنعة ، أي وظائف بلا عمل حقيقي .

٥ . إدخال التخصصات التقنية إلى المعاهد والكليات التقنية بصورة منهجية ومنتظمة طبقا لمتطلبات التنمية .

٦ . التحديث المستمر لنظم الدراسة وطرائق التدريس بالإفادة من التقنيات التعليمية الحديثة .

٧ . التطوير المستمر للمناهج الدراسية التي يكون الطالب عنصرا أساسيا فيها لإكسابه المهارات التقنية وتنمية قدراته التحليلية والمنطقية ، والتعلم الذاتي ، بدلا من حفظ المعلومات واستعادتها .

٨. إيلاء الجوانب العملية والتطبيقية في التعليم التقني اهتماما خاصا ، بوصفها أهم مرتكزات هذا التعليم .

التعليم ومتطلبات سوق العمل

أدرك الكثير من علماء الاقتصاد أن التنمية في عصرنا الراهن باتت تعتمد على التقدم العلمي والتقني والقدرة على توظيف معطيات العلم والتقنية ، وهو أمر يتطلب تحسين منظومات التعليم عامة ومنظومات التعليم التقني خاصة لرفع القدرات المهارية لعموم المواطنين . يشير تقرير

التعليم العالي الصادر من المجلس الاقتصادي والاجتماعي للأمم المتحدة لعام ١٩٩٥ إلى أن الدول النامية الأقل تطورا تعاني من قلة المتعلمين في مجال العلوم والتقنية إذ يبلغ عددهم قرابة ١٠٥ شخص لكل ١٠٠٠٠٠ من السكان مقابل ٨٠٢ لكل ١٠٠٠٠٠ في الدول المتقدمة . لذا تبذل الكثير من الدول جهودا حثيثة للارتقاء بمنظوماتها التعليمية عبر صيغ وأساليب متعددة .

يشير تقرير التنمية البشرية للعام ٢٠٠٥ الصادر من الأمم المتحدة إلى زيادة الإنفاق العام على التعليم من الناتج المحلي الإجمالي في الكثير من الدول ، فقد بلغ في العام ٢٠٠٢على سبيل المثال في اليمن ٩,٥٪ وكوبا ٩,٠ ٪ والدنمارك ٨,٥ ٪ وماليزيا ٨,١٪ والسويد ٧,٧٪ والمغرب ٦,٥٪ وإسرائيل ٧,٥٪، بعد أن أدركت هذه الدول أن التعليم ولاشيء سواه يمكن أن يفضي إلى تنمية حقيقية ، وأن التنمية الصحيحة تتطلب إيجاد منظومة تعليم راقية تتسم بالمرونة والكفاءة والقدرة على اكتشاف الموهوبين والمبدعين واستثمار قدراتهم وإبداعاتهم لمصلحة رقي وتقدم دولهم ، وتوسيع فرص التعليم ونشره على أوسع نطاق لاسيما التعليم التقني الذي كان مقصورا في الكثير من البلدان في الحقب السابقة على فئات معينة من الناس من ذوي الدخل المحدود الذين لاتسمح لهم ظروفهم المعيشية من تحمل نفقات الدراسة في الجامعات ، أو الفئات التي لا تؤهلها معدلات درجاتها في الدراسة الثانوية للالتحاق بالدراسات الجامعية . وحتى وقت قريب لم يلْقَ التعليم التقني الاهتمام الكافي في الكثير من البلدان النامية ومنها بعض أقطارنا العربية ، ولم ترصد له التخصيصات المالية

الكافية لتوفير مستلزماته الأساسية ، إذ ينظر إليه بعض متخذي القرارات التعليمية على أنه نظام تعليم المهن لفقراء الناس الذين بإمكانهم تعلم المهن بالخبرة والمران ، وبذلك فهو أقل شأنا من نظام التعليم الجامعي الذي يوفر الوظائف التي تحتاج إليها المؤسسات الحكومية ، في الوقت الذي يعد فيه هذا النمط من التعليم ركنا أساسيا من أركان المنظومة التعليمية في أي بلد ينشد التطور والتقدم والتنمية الشاملة في جميع مجالات الحياة . وبتطور العلوم والتقنية في عالمنا المعاصر وانعكاساتها على البنية الاقتصادية في الكثير من البلدان ، وظهور مهن كثيرة باتت تستند أكثر فأكثر إلى معطيات العلوم والتقنية لدرجة أن التقدم الاقتصادي والاجتماعي أصبح قرين التقدم العلمي والتقني والمعرفي .

لذا بات ضروريا اعتماد توازن دقيق بين الاستثمارات الاقتصادية وتطوير قدرات القوى العاملة القادرة على تنفيذ مشاريع التنمية المختلفة بالاستفادة من التقنيات الحديثة في مجالات التصنيع والإنتاج المختلفة لتحسين فرص تسويق منتجاتها محليا وعالميا . وهذا يعني ضرورة ربط فرص تدريب القوى العاملة وتأهيلها بإحتياجات سوق العمل الفعلية لمصلحة الاقتصاد الوطني ، وبذلك يعد الإنفاق على أنشطة التدريب المهني والتعليم التقني استثمارا حقيقيا في الموارد البشرية الذي سينجم عنه مردودات اقتصادية كبيرة .

يقدر عدد العمال في الدول النامية ما نسبته ٨٠٪ من مجموع العمال في العالم ، في حين أن نسبة العمال الماهرين منهم تبلغ ٥٠٪ من مجموع العمال الماهرين . يشير تقرير الأمم المتحدة حول التنمية البشرية العربية

لعامي ٢٠٠٢ و٢٠٠٣ إلى انه سيدخل سوق العمل أكثر من ٥٠ مليون من الشباب العرب بحلول عام ٢٠١٠ و١٠٠ مليون بحلول عام ٢٠٢٠. وإذا ما استمر الحال على ما هو عليه سيبلغ معدل البطالة في البلاد العربية أكثر من ٢٥ مليون شخص في العام ٢٠١٠. لذا يستلزم بذل جهود حثيثة لتوفير فرص تدريب وتأهيل مناسبة لجميع الباحثين عن عمل ، وتطوير مهارات العاملين في جميع المهن ورفع قدراتهم التقنية بما يتماشى ومستجدات العلوم والتقنية . ولهذا الغرض لابد من توسيع برامج التدريب المهني والتعليم التقني وتنويعها لتوسيع فرص العمل طبقا لحاجات السوق من جهة ، ومواكبة مستجدات العلوم والتقنية من جهة أخرى . وفي ضوء ما تقدم نقترح تنويع برامج التعليم التقني في المرحلة القادمة باعتماد أساليب تعليمية جديدة ، منها :

١. التعليم الجزئي : يستجيب هذا النمط من التعليم لحاجات العاملين في المؤسسات المختلفة بصورة جيدة وعلى وفق حاجات تلك المؤسسات من دون أن يؤثر كثيرا في سير أعمالهم ، وذلك بإتاحة الفرصة لهم بالدراسة في الكليات التقنية لمدة يوم أو يومين بالاستفادة من أيام العطل الأسبوعية ، وساعات ما بعد الدوام بالنسبة لموظفي الدوائر الحكومية ، ومد مدة الدراسة بما يكفي لتغطية جميع متطلبات الدراسية اللازمة للحصول على الشهادة المطلوبة في كل مستوى دراسي ، إن نظام الدراسة الجزئي معمول به في الكثير من الدول منذ زمن طويل ، وقد أثبت جدواه العلمية والاقتصادية ، إذ أخذت به الكثير من الجامعات والكليات التقنية ، ليس على مستوى الدبلومات والدراسات الجامعية

الأولية، بل الدراسات العليا في الماجستير والدكتوراه ، كما يلاحظ ذلك حاليا من مواقع الجامعات على شبكة المعلومات الدولية .

٢ . التعليم الموازي : يستجيب هذا النمط من التعليم لحاجات الأفراد ممن قد لاتؤهلهم معدلات درجاتهم في الدراسة الثانوية للمنافسة مع الآخرين للقبول في الكليات عبر قنوات القبول الاعتيادية ، أو ممن لا تسمح لهم ظروف العمل الانتظام بالدراسة الاعتيادية ويتحمل هؤلاء الأفراد في العادة بعض أجور الدراسة ، تكون أوقات الدراسة خارج ساعات العمل ، وأسلوب التعليم الموازي معمول به في الكثير من البلدان بوصفه رافدا جيدا من روافد التعليم العالي .

٣ . التعليم التعاوني : يقوم أسلوب التعليم التعاوني على أساس تكامل التعليم الجامعي في الكليات التقنية ، والعمل في الوقت نفسه في أحد التخصصات ، بحيث يتطابق تخصص دراسة الطالب مع طبيعة عمله . تحدد معظم مؤسسات التعليم التقني التي تعتمد هذا النظام أن لا تقل ساعات العمل عن نسبة (٣٠٪) من مدة الدراسة الكلية اللازمة للحصول على الشهادة أو أن يتقاضى الطالب أُجورا مجزية لقاء عمله .

٤. التعليم قصير المـــدى : لا يفضي هذا النـــوع من التعليم إلى منح شهادات علمية ، وإنما شهادات خبرة مهنية ، تمنحها في العادة بعض الجمعيات المهنية أو الشركات ، لعل أوضح مثال على ذلك الشهادات التي تمنحها شركات مايكروسوفت وسيسكو وغيرها في مجال تقنية

المعلومات بعد دراسة في المعاهد والكليات لمدة قصيرة واجتياز متطلبات الدراسة .

٥ . التعليم الإلكتروني : يقصد بالتعليم الإلكتروني نمط التعليم الذي يقدم للمتعلم بالوسائل الإلكترونية ولاسيما أجهزة الحاسوب وشبكة المعلومات الدولية ، ويرتبط هذا النمط من التعليم بمفاهيم التعليم عن بعد والتعليم المفتوح ارتباطا وثيقا . يمكن الإفادة من برامج التعليم الإلكتروني لأغراض التعليم المستمر والتعلم الذاتي بصورة أساسية والتعليم عن بعد في بعض الكليات التقنية لتدريس بعض المقررات الدراسية .

٦ . التعليم المتناوب : يدرس الطالب بهذا النمط من التعليم لمدة ستة أشهر في الكلية، ويقضي النصف الثاني من السنة بالعمل في إحدى المؤسسات في مجال تخصص دراسته بهدف التدريب العملي لاكتساب الخبرة والمهارة في مجال المهنة التي يجري إعداده لها . يطبق أسلوب الدراسة هذا في التعليم التقني أكثر من الجامعات . ولا تختلف مدة الدراسة في هذا النوع من التعليم عن مثيلاتها في النظم الدراسية الأخرى باستثناء طول مدة التدريب في أثناء العمل في المؤسسات .

الخاتمة :

خلاصة القول أن الدول المختلفة المتقدمة صناعيا والنامية على حد سواء باتت تدرك اليوم أكثر من أي وقت مضى ، أن تنمية قدرات مواطنيها ومهاراتهم طبقا لمستجدات العلوم الحديثة ومبتكرات التقنية المتقدمة بهدف الإفادة السريعة منها لأغراض التنمية المختلفة وزيادة الإنتاج والإنتاجية بصورة أو بأخرى ، وتأمين فرص العمل لجميع طالبيه

وديمومة النمو الاقتصادي في ظل اقتصاد العولمة القائم على المعرفة حيث المنافسة على أشدها بين الدول المختلفة في جميع المجالات ، إنما يتطلب إيجاد نظام تعليمي متطور يتسم بالجودة والكفاءة والمرونة ، ويشارك باكتشاف المبدعين والمتميزين في حقول المعرفة المختلفة ، ويرتبط ارتباطا وثيقا بحاجات حقل العمل ، وتشير جميع الوقائع والأحداث إلى أن الدول التي حققت وتحقق نموا اقتصاديا هي الدول التي تمتلك نظاما تعليميا راقيا ، لذا ينبغي أن ينظر صناع القرار إلى أن قطاع التعليم عامة والتعليم التقني خاصة قطاع استثماري أكثر من كونه قطاعا خدميا ، وهاهي الولايات المتحدة الأمريكية التي تمثل أكبر قوة اقتصادية وتقنية في العالم تستشعر الخطر الداهم إليها من دول أخرى بسبب منافستها في سوق العمل بتوفير قوى عاملة متعلمة وذات مؤهلات تقنية حديثة وقادرة على العمل بكفاءة عالية وبأجور أقل من أقرانها في الولايات المتحدة ، الأمر الذي تطلب منها إعادة نظرة جذرية وشاملة بنظامها التعليمي ، ذلك أن التعليم ولا شيء سواه يمكن أن يفضي إلى تقدم أية أمة من الأمم .

المصادر العلمية

١ . اختيار القوى العاملة الأمريكية بين المهارات العالية أو الأجور المتدنية .

المركز الوطني للتعليم والاقتصاد في الولايات المتحدة الأمريكية ، ١٩٩٠ .

٢. بعض اتجاهات التعليم الجامعي المعاصر

مجلة آفاق عربية / العدد ٥/٦ – ٢٠٠٠.

٣. جريو ، داخل حسن
التعليم الجامعي ومواجهة بعض متطلبات العصر.
مجلة أبحاث مستقبلية / كلية الحدباء الجامعة / العـدد الخامس – ٢٠٠٢ .
٤. تقرير التعليم العالي
المجلس الاقتصادي والاجتماعي للأمم المتحدة ، ١٩٩٥.
٥. تقرير التنمية البشرية العربية لعامي ٢٠٠٢ و٢٠٠٣
منظمة الأمم المتحدة .
٦ . تقرير التنمية البشرية
منظمة الأمم المتحدة ٢٠٠٥ .
٧ . جريو ، داخل حسن
التعليم في عالم متغير
مجلة المجمع العلمي، الجزء الأول ، المجلد ٥٢، لسنة ٢٠٠٥
٨. تقرير التنمية في منطقة الشرق الأوسط وشمال افريقيا
البنك الدولي ، ٢٠٠٧ .
٩ . الأوقات الصعبة
المركز الوطني للتعليم والاقتصاد في الولايات المتحدة الأمريكية، ٢٠٠٧.
١٠ . جريو ، داخل حسن
التعليم العالي في العراق ومتطلبات النهوض
مجلة المجمع العلمي العراقي ، المجلد ٥٤، الجزء الرابع، لسنة ٢٠٠٧.

الدلالة المتحولة وفـرادة صورة الحزن
(في ثلاث مراث لأمي) لنازك الملائكة

الدكتورة وسن عبد المنعم الزبيدي

الملخص :

يسعى هذا البحث إلى دراسة الخطاب الشعري في إحـدى المراثـي الفريدة لرائدة الشعر الحر في العراق نازك الملائكة ، وعن الكيفية التـي انتظم فيها في محاولة جادة لاستقصاء الدلالـة عبر أنساقهـا وتشكلاتهـا إنطلاقا من البنيات السطحية والعميقة وملاحقة الملفوظات واستنطاقهـا والكشف عن المسكوت فيها والمتواري منها ، لتكوين نظرة تكـون أكثـر شمولية وسعة ، وبيان مدى إمكانـات الكـشف عـن الملامـح الأدائيـة والتعبيرية التي تنبني عليها معالم جمالية النص ، فالنص ليس منعزلا بذاته عن واقعه بل تمثيل حقيقي له ، فموضوعة المراثي الثلاث تحاول الرائدة فيها أَنْ تفلسف للموت وكيفية التعامل معه تعاملا يكسب خصوصية متميزة من الأشكال والبناءات التصويرية التي تمنحهـا إياه لحمة السيـاق فـي سيرورته وانتظامه .

النص :

ثلاث مَراثٍ لأمي

قد يكون الشعـر بالنسبة للانسـان السعيد ترفا ذهنيـا محـضـا ، غير أنه بالنسبة للمحزون وسيلة حياة . وقـد كانـت القـصائد الـثلاث التالية محاولة للتعزي لجأت اليها على أثر وفاة أمي في ظروف محزنـة

عانيت منها معاناة خاصة . ولم أجد يومئذ لأمي منفذا آخر غيـر أن أحبه وأغني له* .

١- اغنية للحزن

أفسحوا الدربَ له ، للقادمِ الصافي الشعورِ ،
للغلام المُرْهَفِ السابحِ في بحر أريجٍ ،
ذي الجبين الأبيض السارق أسرارَ الثلوجِ
إنّه جاء إلينا عابرا خِصْبَ المُرُورِ
إنّه أهدأ من ماءِ الغديرِ
فاحذَرُوا أن تجرحوه بالضجيجَ

• • •

انّه ذاكَ الغلامُ الدائمُ الحُزْنِ الخَجولُ
ساكنُ الأمسيةِ الغَرْقى بأحزان خفيّه
والزوايا الغَيْهبيّاتِ السكونِ الشَفَقيّه
ابدا يجرحُهُ النَوْحُ ويُضنيهِ العويلُ
فليكن من صمتنا ظلٌّ ظليلُ
يتلقّاه وأحضانٌ خفيّه

• • •

وهو يحيا في الدموعِ الخُرْسِ في بعضِ العيونِ
ولَه كوخٌ خفيٌّ شِيدَ في عُمْقٍ سحيقَ
ضائعٌ يعرفُهُ الباكون في صمْتٍ عميقَ

---

* قرارة الموجة ص٩٩ .

وسُـدَى يبحــثُ عنْـهُ الألــمُ الخشْــنُ الرنينِ
انّـــــــه يقتــاتُ أســرار السكـــــونِ
وأســـــىً مختبئـــا خلـــف العـــــروق

• • •

نحن هيَّأنا له حبًا وتقديســا ونجوى
وتهيّأنا للُقْيــــاهُ عيونـــــا وشفاهـــا
وسنلقـــــاهُ مُصلّينَ كمـــا نلقى إلها
وسنُهْديه انفجارَ الأدمعِ العذْبةِ سلوى
وسنحبـــــوه أســــــىً أقوى وأقوى
وسنُعْطيــه عُيونـــــــا وجباهـــــا

• • •

انّه أجملُ من أفراحنـــا ، من كلّ حُبٍّ
انّه زنبقةٌ ألقـــى بهـــا الموتُ علَيْنـــا
لم تزل دافئةً ترعشُ في شوق يدَيْنـــا
وسنُعْطيها مكانـــا عطِرا في كلّ قلبِ
وشــذا حُزْنٍ عميق القَعْــــرِ خِصْبِ
انّــه منـــا ... وقــد عــاد إلينـــا ...

٢ - مقدم الحزن

أفسحو الدربَ ، إنّه جــاءَ خجلانَ
رقيــقَ الخُطَــى كئيــبَ الجبيــنِ
ألغلامُ الحسّاسُ ذو الأعينِ الغَرْقَى
بتاريـخِ ألــفِ ســـرٍّ حزيــنِ

إنّــه مُطْعــم العيــونِ العميقــاتِ

وينبــوعُ كــلِّ دمــعٍ سخيــنِ

ولقــد جاءنــا تبلّــلُ عينيــهِ

الدموعُ الخرســاءُ عبْرَ السنيــنِ

• • •

إنّــه حزْنُنــا الصبــيُّ

لقيناه على غيرِ موعدٍ وانتظارِ

لــم يزل هادئا خجولا كما كان

ومــا زالَ غامــقَ الأســرارِ

جاءنــا دافئــا أرقَّ من الدّمْعِ

وأحلــى من رعشــةِ الأوتارِ

ففرشنــا لــه طريقا من اللهفة

والحــبّ والدمــوعِ الغِــزارِ

• • •

وأخذنــاهُ فــي خُشُــوعِ

إلــى أعمــاق أفراحنــا وقَعْــر رؤانا

ومنحنــاهُ كــلَّ مــا جَمَــعَ الحــبُّ

مــن اللــون والشــذا لصبانــا

ورَصَفْنــا لــه هوانــا

وما أبقَى لنا الموتُ والأسى من منانا

وغسلنــا جبينَــهُ بدمــوعٍ

صامتــاتِ عطشــى تذوبُ حنانــا

• • •

انّه خيطُنــا الأخيرُ الى الســروةِ

فيــه مــن أمسنــا الفُ شـــيء

لم يَزَلْ هامسا لنا ((انّها ماتتْ))

علـــى مسْمــع الشّــذا والضــوء

إنّ فيــه من وجههــا وأمانيهــا

وأشواقهـــا بقيّـــــــة دفء

وهو إحساسُهـــا يعــود إلينــا

مُرْعشـــا من كياننــا كـــلّ جزء

•••

انّــه كـــلُّ ما تبقّـــى لنـــا

من وجه ضحْكاتنا ورجْع الأغاني

إنّ فيه نهايــةَ الطَــرَف الثانـــي

لمـــا هـــدّم الردَى من أمانـــي

فوهبْنا له صــلاةً مــن الأدمُــعِ

خَجْلـــى مهموســـةَ الألحــانِ

ومنحناهُ مسكنــا فـــي مآقينــا

وحبّا أقـــوى مــن النسيـــانِ

٢- الزَهرة السَّودَاء

كنزُنا الغالي تركناهُ هُنــا

لحظاتٍ ثم أسرعنا إليـــه

والتمسناهُ وراء المُنْحَنـــى

وعلى التــلِّ فلــم نعثر عليهِ

● ● ●

وسألنــا عنْه فــي الغابة ربوه
فأجابــتْ أنّهــا قـــد نَسِيَتْــهُ
و همسْنا باسمـــه في سَمْع سَرْوه
فتناستْ في الدُجى ما سَمِعَتْــهُ

● ● ●

غيرَ أنّ الفجرَ حَيّــا في ابتسامْ
وأرانا في مكان الكنزِ زهــره
نبتَت سوداءَ في لون الظـــلامْ
وسقاها دمعُنا لينــا ونَضْــره

● ● ●

كلّما مرَّتْ بهــا ريحُ الصباحْ
بعثَت في الجوّ موسيقى خفيّه
وأنينا خافتــا مــلءَ الرياحْ
كمنَتْ فيه دمــوعُ البشريّـــه

● ● ●

إنها زهرتُنا الوسنى الحزينه
أمسُنا في لونها مازال لَدْنــا
فمنحنـــاه مآقينـــا السخينـــه
وحملناها مع الذكرى وعُدْنا

الدراسة والتحليل :

توجهت نازك الملائكة توجهات جديدة حين جعلت من اللغة منطلقها الأساسيّ للبحث عن جماليات خلاقة قائمة على تآزر عنصرين رئيسين هما (الدال والمدلول) ، وهي بهذا تعي تماما أن مكامن الإبداع تنبجس من اللغةِ والتصرف فيها ، وترى أن اللغة هي ((كنز الشاعر وجنيته الملهمة في يدها مصدر شاعريته ووحيه))[١] ، وأن اللغة إن لم تركض مع الحياة ماتت ، وتدرك أن شاعرا واحدا قد يصنع للغة ما لا يصنعه ألف نحوي ولغوي مجتمعين ، فحينما يعمد الشاعر إلى خرق قاعدة يكون مدفوعا بحسه الفني فلا يسيء إلى اللغة ، وإنما يحاول أن يدخل فيها تغييرا جوهريا يتواءم وطبيعة التطور في اللغات الإنسانية الحية فيشدها إلى الأمام بما أُوتي من حس لغوي مرهف قادر على الخلق والإبداع .[٢]

واللغة ليست مجموعة من الوقائع المنفصلة وإنما هي منظومة لكل عنصر من عناصرها وظيفة يؤديها ، والشعر ((لغة داخل لغة))[٣] على حد تعبير فاليري ، وطبقا لذلك فان معرفة المنظومة اللغوية والقدرة على التفنن بمفرداتها وخلق شبكة علائقية تركيبية وتصويرية تقع على عاتق المبدع ، لان حداثة اللغة الشعرية هي من اختراع الشاعر ، وحدود هذه اللغة ترتكز على تخلق الطينة ، اللبنة وصيرورتها وما يطرأ عليها من

---

[١] سايكولوجية الشعر ومقالات أخرى: ١٠.

[٢] ينظر : مقدمة شظايا ورماد : ٨ـ٩.

[٣] بنية اللغة الشعرية ، جان كوهين : ١٢٩.

تغيرات حيوية تنسجم وعمق التجربة والواقع الحضاري المتموج ، الــذي ينأى عن الجمود والثبات فهو واقع متحول ، والشاعر جزء من واقعه فهو مرتهن به الأمر الذي يوجب عليه أن يساير مجريات التطور ، وعليــه أن يحسن توظيف أدواته ولغته التي هي مصدر إبداعه وتجدده ، ولأن المدلول الشعري ((يسمو بالعالم المفهومي حيث اللغة تؤطر دلالتها))[٤] . ومــن المسلم به أن قيمة أي عمل تكمن في طرائق صــياغته وآليــات اشــتغاله وانتظامه فهو ((يستمد دلالته من وجوده ، لا من حقيقة قبليــة أو معنــى سابق عليه ، ووجوده يتلخص في تأثيره ، وهو يستمد حياته ومعناه مــن هذا التأثير ، وفي استجابة الناس له))[٥] ، لذا فان طرائق تقديم النصوص الثلاثة بحلتها الجديدة وما نجم عنها من روح التغيير في مكوناتها الداخلية والخارجية ، تجعلنا نبدأ بفك شفرات النصوص اللغوية من خلال علاماتها الظاهرة وصولا إلى صورتها داخل سياقها النصي العــام ، إذ نلحــظ أن تشكلها انبنى على مبدأ الالتزام المنضوي تحت مظلــة القــديم ، إلا أن ملامح الانعتاق تتأتى من طبيعة التشكل الصيغي ولمســة التنــوع فــي استعمالات القافية ، الأمر الذي حدا لها بتأسيس كينونــة خاصــة بــذاتها يسودها جو من التآلف والتناغم ، ولا تقف مكامن الإبداع عنــد كيفيــات التشكل فحسب بل تتعداه إلى المضمون الدلالي، فما نلحظه مــن عمليــة

---

(٤) المصدر نفسه : ١٥٥، وينظر ، مفهوم الشعر عند السياب ، د. عبد الكريم راضــي جعفر :٥٨

(٥) مقدمة في علم الجمال ، د. أميرة حلمي مطر : ٧٠.

ملاحقة اشتغال الدلالة نستشرف فيها بُعدا إدراكيا لتناول ظاهرة الحزن ومسببه الفعلي ، حيث نجد أن الشاعرة تعاملت معه بحذق ووعي متزايد يتسرب لنا في صورة فنية خلقت مزاجا من نقيضين يمكن عدها نوعا من المراوغة الدلالية ولاسيما أن الذات المبدعة تسعى إلى استنفار طاقات الإبداع وإفرازها بألفاظ مكثفة الدلالة على قلتها إلا أنها تكتنز قوة إيحائية ذات استدعاءات سحرية ، لما تحمله من الرموز والخلجات الغامضة واتجاهات اللاشعور[٦] التي تتجمع وتتشظى مانحة المشهد بُعدا مأساويا .

إنّ المعنى الذي يتبادر إلى الذهن أول وهلة هو احتفاء الشاعرة بالقادم ، وهي ترمز به إلى الموت الذي لم تعلن عنه صراحة بل يمكن استنباطه من دلالة الألفاظ التي ساقتها ففي المرثاة الأولى (أغنية للحزن) تظهر براعة الاستهلال التي ترتقي إلى مستوى المشهد وفيها تقول :

افسحوا الدربَ له للقادم الصافي الشعور
للغلامِ المرهفِ السابح في بحرِ أريج
ذي الجبين الأبيض السارق أسرار الثلوج ،
إنه جاء إلينا عابرا خصب المرور
إنه أهدأ من ماء الغدير
فاحذروا أنْ تجرحوه بالضجيج .

وفي الثانية (مقدم الحزن) يدهمنا تعالق الدلالات ذاتها فتبدو الصورتان متوالفتين حين تقول :

---

[٦] ينظر مقدمة شظايا ورماد:١٤٠، وينظر : زمن الشعر ، أدونيس: ١١١

افسحوا الدربَ له ، إنه جاء خجلان

رقيـق الخطـى كئيـب الجبيـن

الغلام الحساس ذو الأعين الغرقـى

بتاريخ ألـف ســـر حزيـن ...

وهذا المعنى يكشف لنا عن حصول تنازع يجمع بين الرغبة والرهبة في بوتقة واحدة،وهما خصمان متضادان يظهر مـن خـلال اجتماعهمـا الجانب الصراعي الذي تحاول الشاعرة جاهدة تأطيره وإخراجه بـصورة مغايرة للمألوف .

فالاحتفاء بالقادم احتفاء ظاهري سطحي بمعنى أنه غير حقيقي وهذا ما سنعمد إلى ملاحقته والكشف عنه عبر إجراءات التحليل النصي .

المراثي الثلاث لنازك كلها تدخل في باب إجراء القول على غير المألوف إلماعا إلى إبراز الفرادة والتميز في الموقف ولفتا إليه بطرق مفارقة. وعلى أساس هذا الفضاء تسوح نازك بكيانها الخاص في عالمها الحزين ، في سعي دائب بأنْ تحول أمواج الدموع إلى نهر حياة ممتد إلى ما لا نهاية في المرثاتين الأولى والثانية تعمد الشاعرة إلى تكرار العبارة ذاتها (افسحوا الدربَ) ، وهي خطاب سردي متمثل بالحاضر الحواري لمخاطبين مغيبين ، وما جعلنا ننساق وراء التغييب هو علمنا بأن الشاعرة خاضت تجربتها الواقعية وحدها منقطعة عن أهلها وديارها ، ولاشك في أن استدعاء مخاطب محاور له دلالته ، لأن المحاورة في كل أحوالها تمثل شخصية المحاور ورأيه ومقدار عقله وتفكيره[٧] ، وكأني بالشاعرة أرادت

---

[٧] ينظر : أسلوب المحاورة في القرآن الكريم :١٦.

أن تفصح عن مكنونات ذاتها وتفكيرها ، فهي تتعجل الموت لأنها فقدت الرجاء بشفاء أمها ، وإن كانت عاطفيا لاتريد للموت أن يفسح له الدرب . وإن استدعاء الفعل (افسحوا) ، فيه دلالة على الزمن القريب الذي لابد هو آت . كانت نازك تعلم أن أمها لن تشفى من مرضها العضال ، وكانت تتوقع موتها كل يوم وعلى هذا الأساس بنت مرثاتها لامها ، التي بدأتها بمرثية (أغنية للحزن) ، ينطلق الحوار فيها من خطاب أمري مباشر تدعو فيه إلى أن يفسح الدرب للموت الذي شبهته بالغلام ، ولا يزال كثير من الناس يفرح بالمولود الذكر أكثر من فرحه بالمولود الأنثى ، لأن الذكر قد يكون معيلا وذائدا عن الأسرة ومدافعا عن الوطن حين كانت الحياة غير ما هي عليه من وسائل لاتجعل فرقا بين مولود ومولود . وكان الغلام كما عبر عنه القرآن الكريم بشرى ، فقد عثر الوارد على النبي يوسف ـ عليه السلام ـ قال ((يابشرى هذا غلام))(يوسف ١٩) ، وقال ضيف إبراهيم له : ((إنا نبشرك بغلام عليم)) (الحجر ٥٣) واستغرب من تلك البشرى (الحجر ٥٤) ، والغلام هبة من الله لمريم ((قال إنما أنا رسولُ ربك لأهبَ لك غلاما زكيا)) (مريم ١٩) ، فالغلام بشرى وهدية من الله (عز وجل) تثير الفرح وتبعث الفخر والاعتزاز ولكن نازك وظفت لفظة (الغلام) لغير هذا ، فهو الموت الذي جاء وأمها مريضة بصورة تختلف عن المألوف ، وهنا تكمن المفارقة ، وينطلق التساؤل الآتي : أهي فرحة حقيقية أم على سبيل المجاز . حيث تتحول دلالة الدوال لمدلولات جديدة ضمن سياقاتها فتتحقق عندها المغايرة المرجوة ، وهذا ما سنجهد في سبيل بلوغه. ما يلبث الحوار أن يتحول إلى إنثيال توصيفي متتابع لموصوف

واحد تجمعهما علاقة وطيدة بين الجزئيات للارتقاء بالصورة ، حيث أعطت نازك صفات المحاسن والجمال للموت ، فالموت أحمر أو أسود كما الفته أسماعنا وارتسم في مخيلتنا بالخطاب الشعري المتوارث الذي اعتاد الشعراء تصويره على نحو يثير الخوف كونه مهاجما عتيا حيث كثيرا ما يكون هو القمع والطغيان الذي يقتضي التسليم له ، فها هو أبو ذُويب الهذلي يصوره على هذا النحو في رثاء أولاده :

وإذا المنية أنشبـــت أظفارهـــا   ألفيت كـــل تميمة لا تنفـــع[٨]

وينقل لنا البحتري أيضا صورة مرئية متحركة ، يظهر فيها ما كان عليه (المتوكل) حينما قتل بنفس درامي قائم على تجسيد صوري مكثف في قوله :

صريعٌ تقاضاه السيوف حشاشةً   يجودُ بها والموتُ حُمْرٌ أظافره[٩]

يتضح لنا أن نازك تتكيء على تقنية المفارقة التي تصدر عن ذهن متوقد ووعي شديد للذات بما حولها ، وتتحدد المفارقة في رأي الدكتورة نبيلة ابراهيم بأربعة عناصر سنركز على اثنين منهما : الأول : وجود مستويين للمعنى في التعبير الواحد ، المستوى السطحي الظاهري والمستوى الكامن ، والثاني : إدراك التناقض من خلال المستوى الشكلي للنص[١٠] . ونحن نواجه تعابير الصورة التي جاءت بها نازك للموت

---

[٨] ديوان الهذليين(القسم الاول): ٣.

[٩] ديوان البحتري : ١٠٤٨/٢.

[١٠] المفارقة :١٢٣.

بالاستغراب أو بالاستنكار بادئ الأمر ، لأنها خرق للعادات المتوارثة ، والخطاب الشعري ينبغي أن يعبر عما تقبله الطبائع[١١] ، لذا نجد ان الذات المبدعة تجهد لجعله مألوفا ومقبولا مستساغا لأنها تشعر أن ما تاتي به من صور مغايرة سيدهش المتلقي ويوقع في نفسه الغرابة . إن اصطراع الذات الإنسانية ومعاناتها الحقيقية التي يحتدم فيها الألم وعمق المعاناة هما بحق المرجعية المحركة للخلق والتجدد، ولم يكن شعر نازك عبر امتداده الزمني سوى دفقات دموع وأحزان ، وجدت فيه متنفسا لبث وجعها النفسي الضاغط لتطلق زفراتهــا حــادة قوية ، فهي تقول في ديوانهــا ((قد يكون الشعر بالنسبة للأنسان السعيد ترفا ذهنيا محضا ... غير أنه بالنسبة للمحزون وسيلة حياة))[١٢] ، وهنا يصدق القول بان الفن ليس سعادة بحد ذاته ولا ممارسة للسعادة ، بل هو متنفس وهرب من واقع الحال[١٣] ، فالتعابير تتم بهاجس الشاعرة الخلاق ، والشاعر كما يرى أدونيس كيميائي الواقع ، يصهره في بوتقة حساسيته ورؤياه ويحوله إلى إيقاع ، مانحا كل شيء فرادة خاصة ، فيما يصل كل شيء بكل شيء ، ويأتي واقع القصيدة أكثر بهاء وتناسقا وعمقا وديمومةً عن (أصلها الواقعي) ، فالقصيدة لا تحاكي الواقع ، وإنما تجانسه[١٤] ، وهكذا فعلت نازك حين حلقت بجناحيها

---

[١١] ينظر : تحليل الخطاب الشعري : ٢٤.

[١٢] قرارة الموجة : ٩٩.

[١٣] ينظر : تأملات فلسفية ، د. ناجي التكريتي: ٥٤.

[١٤] ينظر: زمن الشعر ، أدونيس : ٩٦.

في أفق التخييل برؤاها الخاصة ونظرتها التي تتسم بالغرابة وتوليد المعاني والصور الجديدة المعبرة عن الحياة وعمق آلامها وأحلامها[١٥] .

البنى الصوتية وفاعليتها الأسلوبية :

إن التشكل الصوتي والكيفية التي ينتظم فيها الإيقاع داخل النسيج الشعري يحقق قيمة عالية في رفد المحاكاة الشعرية ويعمل على زيادة فاعليتها ، وقد أكد ابن سينا (ت ٤٢٨هـ) ذلك في قوله : ((إن الشعر لا يتم الا بمقدمات مخيلة ، ووزن ذي إيقاع مناسب ، ليكون أسرع تأثيرا في النفوس ، لميل النفوس إلى المتزنات ، والمنتظمات التراكيب))[١٦] ، وتكمن جمالية الإيقاع في قدرته على شد المتلقي تجاه البنى الدلالية ، الذي يكون فيها ((الجرس يسند المعنى))[١٧] ، في عملية إيصال وتواصل .

وعلى الرغم من ثورة نازك الملائكة في مقدمة ديوانها (شظايا ورماد) على الأوزان والقوافي واللغة لكنها في قصائد رثاء أمها لم تخرج عما دعت إليه ، فقد التزمت بمجزوء الرمل في الأولى (أغنية للحزن) ، وفي هذا البحر وثبات سريعة تعبر عن الانفعال الذي يحدث أول الصدمة ، وهو يلائم الفرح أو الحزن ولذلك كانت معظم القصائد المغناة من الرمل ومنها ــ على سبيل المثال ــ (الأطلال) ، وعن هذا البحر قال الدكتور عبد الله الطيب المجذوب ((ونغمة الرمل خفيفة جدا وتفعيلاته

---

(١٥) ينظر : إشكالية التجديد الشعري ، أحمد مطلوب : ٤٨.

(١٦) المجموع أو الحكمة العروضية: ٢٠.

(١٧) الشعر كيف نفهمه ونتذوقه : ٥٠.

مرنة للغاية ... وفي رنته نشوة وطرب))[١٨] ، وأشار محمد غنيمي هلال إلى أن الحالة النفسية للشاعر تجعله ينساق إلى وزن من دون وزن سواه ((فقد تنفعل النفس أو تطرب لداعٍ مفاجئ ، فتلجأ إلى البحور المجزوءة أو بحور الخفيف والمتقارب والرمل))[١٩] ، جاءت المقاطع الصوتية في المراثي الثلاث على النحو الآتي :

في المقطع الأول ، زاوجت بين الراء والجيم ، وزاوجت في المقطع الثاني ، بين اللام المسبوقة بحرف العلة والياء المشددة الموقوف عليها بهاء السكت ، وفي الثالث زاوجت بين النون المسبوقة بحرف العلة والقاف المسبوقة بحرف العلة أيضا ، وفي الرابع بين الواو المختومة بالألف المقصورة والهاء المسبوقة بالألف والمنتهية بها أيضا ، وفي الخامس بين الباء المكسورة والياء والنون المنتهيتين بالألف .

وقصيدتها الثانية (مقدم الحزن) نظمتها على بحر الخفيف ، وهو بحر يمتد ليعبر عن المعاني والأفكار كما يعبر عنها النثر ، وفي هذا البحر تقول نازك ((هو البحر الخفيف الذي يجري بين يدي الشاعر كما يجري نهر عريض في أرض منبسطة))[٢٠] .

لم تنوع في القطعة كما نوعت في القصيدة الأولى ، فالمقطع الأول ، نون قبلها حرف علة ، والمقطع الثاني راء قبلها ألف والمقطع الثالث نون

---

(١٨) المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها : ١/ ١٢٤.

(١٩) النقد الأدبي الحديث: ٤٦٨ .

(٢٠) ديوان نازك الملائكة : ١/٧ .

قبلها وبعدها ألف والمقطع الرابع جاءت بالهمزة قافية ، ولا أظن أنها وفقت ولاسيما بــ (شيء) و (جزء) ، والمقطع الخامس نون قبلها ألف وبعدها ياء .

وفي قصيدتها الثالثة (الزهرة السوداء) ، عادت إلى بحر الرمل كما أنها التزمت بثنائية التقفية :

المقطع الأول : هنا ــ إليه ــ المنحنى ــ عليه .

المقطع الثاني : ربوه ــ نسيته ــ سروه ــ سمعته .

المقطع الثالث : ابتسام ــ زهره ــ الظلام ــ نضره .

المقطع الرابع : الصباح ــ خفيه ــ الرياح ــ البشرية .

المقطع الخامس : الحزينة ــ لدنا ــ السخينة ــ عدنا .

لامراء أن لعبارة الاستهلال خصوصيتها بوصفها بؤرة التفجير التي تتولد منه المعاني تباعا ، ولاشك في أن مجيء التعبير بسياق إنشائي يرتبط بصيغة الأمر قد أعطى خصوصية عالية في حدة إيقاعه فالفعل (افسحوا) يتكون من ثلاثة مقاطع :

المقطع الأول : يوحي بالثقل والبطء والتلكؤ الناجم بفعل الهمز .

والمقطع الثاني : مفتوح قصير يمثله حرف السين الانفجاري بصفيره العالي الذي يكشف عن التصعيد النفسي للأسى المتأتي من إيقاعه الصوتي. أما المقطع الثالث : فهو يستند إلى صوت المد الطويل الذي ما يلبث أن يتعاضد مع حركة الكسرة المشبعة في آخر الشطر عند مد الصوت بها فتكون ياء مترعة بالتوجع والالتياع بمرارة الواقع التي تخرس الأصوات ، في عملية تجاوب وتواصل امتدت لتشمل الاستحواذ على حواس المتلقي ،

ومن خلالها يتولد الإدراك الجمالي بقيمة النص إيقاعيا ، فضلا عن الثراء الدلالي الذي شحنت به اللفظة ، فهي لفظة ذات دلالة تحولية ، تدفع المتلقي إلى البسمة التي سرعان ما تختفي وتتلاشى بمجرد أن تأخذ الصورة معالم اكتمالها.

إنَّ عمليةِ ملاحقة أجزاء النصوص الثلاثة وفقراتها محاولة لاستجلاء مستوى تشكلها ومدى انتظامها وتلاحمها وانسجامها داخل سياقها العام . فإذا ما انتقلنا من لفظة الاستهلال وتابعنا نعوت القادم (الغلام) ، وهو رمز للموت الذي أخرجته الشاعرة في تجسيد استعاري وأنسنته بما خلعت عليه من توصيفات ترتكز على المزج بين المعطيين الحسي والمعنوي ، وما ينتج عن فعل تزاوجهما من تقاطع بين عالمين : الأول : عالم غيبي مجهول غير مرئي ، والثاني : عالم واقعي مدرك مرئي .

إنَّ انتقاء ملامح الشخصية يقتضي خضوعها لسنن متداولة تتضمن خلفية معرفية ودلالية للتعرف عليها ، لكي تتحقق عملية التواصل بين الباعث والمرسل إليه ، ولا يكون ذلك إلا حين يشتغل التصوير تحت منظور التوافق والتماثل حتى تؤدي الصورة أثرها في متلقيها وتحقق وظيفتها ، فلو تأملنا المرثاتين الأولى والثانية ، لوجدنا أن رسم شخصية الموت قد تم إخراجه في تصوير تتضح فيه معالم الجدة والحداثة ، على وفق تصورات الذات المبدعة وإحساسها التي عبرت عنه بمنتج لساني بأشياء مرتبطة بتجربتها وإدراكها ، فالشخصية المرسومة تنبئ عنها الدلائل اللسانية ومنها نتوصل إلى إدراك محددات المظهر الخلقي لهيأته وشخصيته ، وفي الصوت والسلوك ، وفي الكيفية اللونية .

إنَّ قراءة أولى لمشهد الاستهلال من شأنها أن تهيء المتلقي لاستقبال صورة القادم بوصفه المحور الأساسي والمحرك الفاعل للحدث مما يجعله في دائرة الضوء ، والتركيز عليه من خلال الاستطراد الوصفي الذي يجعل ذهن المتلقي ينصرف كليا إلى متابعة رسم معالم صورته .

وإنَّ استكناه توصيفاته تحيل على جانبين : الأول : الجانب الخارجي المحسوس المرئي : المتمثل بالمظهر الخلقي ، بتصوير رائع لمحياه اللطيف ، فهو (*السابح في بحر أريج ، ذي الجبين الأبيض ، الخجول ، رقيق الخطى ، كئيب ، ذو الأعين الغرقى*) ، الجانب الثاني : الجانب الداخلي غير المرئي : تمثله الألفاظ (الصافي الشعور ، المرهف ، الهادئ ، غامق الأسرار ، الدافئ) ، من الجلي أنَّ الصورة المتخيلة تتضح عبر آلية التوالد الوصفي الذي يجعلنا أمام التساؤل الآتي ؟ ترى هل أرادت الشاعرة بذلك أن تقدم وصفا (بيولوجيا) للشخصية ، وما المسوغ الدلالي الداعي إلى ذلك ؟ فكأني بها أرادت أن تضفي هذه الصفات الجميلة للموت الذي أخاف الإنسان منذ بدء الخليقة ، ولعلها استعملتها لتخفف من المصاب الذي سيحل قريبا ، فلو تأملنا بنظرة فاحصة مفردات الوصف لألفينا أنها أخرجت إخراجا فنيا مقصودا ، حيث خضع التصوير لأشكال نسقية يضبطها تآزر عناصر عدة يؤدي ترابطها إلى مهام مضاعفة في مستوى الدلالة . لجأت الشاعرة إلى مداعبة المشاعر بخطابها للحواس، بالشكل الذي تتمكن فيه من خلق الجو الشعري المتميز عبر توظيف المدركات الحسية . تمور المراثي الثلاث بمشاهد حسية تتداخل وتتعالق فيما بينها

بصورة مكثفة ينفتح بعضها على بعض فتحدث ظاهرة تراسل الحواس ، التي تعمل على توسيع مسافة التوتر ، ولهذه الظاهرة أثر كبير في تنشيط الخيال ، وإزاحة رتابة التعبير ، وتفعيل أفق الانتظار الذي تبحث فيه (الشعرية) ، مما يجعل المتلقي في عالم جديد من الإمتاع .[٢١] يعمل التصوير على استثارة قنوات الإدراك الحسي التي تنتزع صور المحسوس لتؤول إلى الجولان الذهني عند المتلقي وصولا إلى نتائج التصور ولاسيما إذا تم اجتماع أكثر من حاسة على فضاء النص ، وهنا لابد لنا من أن نستذكر الإشارات الفريدة لابن طباطبا العلويّ إلى دور الحواس الذي أورده في أن العلة : ((في قبول الناقد للشعر الحسن الذي يرد عليه ، ونفيه للقبيح منه واهتزازه لما يقبله ...أن كل حاسة من حواس البدن إنما تتقبل ما يتصل بها بما طبعت له إنْ كان ورودها عليها ورودا لطيفا باعتدال لا جور فيه ، وبموافقة لا مضادة معها ، فالعين تألف المرأى الحسن ، وتقذى بالمرأى القبيح الكريه ، والأنف يقبل المشم الطيب ، ويتأذى بالمنتن الخبيث ، والفم يلتذ بالمذاق الحلو ويمج البشع المر ، والأذن تتشوق للصوت الخفيض الساكن وتتأذى بالخشن المؤذي))[٢٢] ، ويبدو أن للصورة البصرية حضورا فاعلا في فضاء النصوص ، وقد وصفت حاسة البصر بأنها ((أدق الحواس وأكملها وأمتعها ، فالبصر يمد

---

[٢١] ينظر : شعرية المغايرة ، د.إياد عبد الودود الحمداني :١٥٤.

[٢٢] عيار الشعر : ١٤.

العقـل بأكبر قدر من الأفكــار وأكثرهــا تنوعا))[٢٣] ، وتأخذ الصورة البصرية أبعادها عبر استثمار تقنيات عدة منها تقنية المجاورة التي تتكئ على آلية توظيف اللون وتنسيقه على سطح النص ، فتتبلور الصورة الحسية وتؤدي رسالتها الشعرية[٢٤] ، فاللون يمتلك قوة إيحائية ضاغطة تكسب بناء القصيدة صلابة[٢٥] ، فضلا عن أنه يلقي ظلاله على الصورة فيفعل عملها ، وأنَّ عملية توظيف اللون في فن القول الشعري لا يكتسب مزية بنائية مستقلة عن السياق التركيبي العام للنص ، إذ أن اللوحة التشكيلية من اللغة لا تكتمل خيوطها من هذه الأبعاد اللونية ، من حيث تجميع الألوان أو تضاد بعضها إن لم يكن وراء ذلك ثراء دلالي يتسع منظوره ليشمل ما تجد فيه النفس وكذا الذهن متطلباتها من الإمتاع واللذة والاجتذاب[٢٦] ، اللون الأبيض هو أول مــا يطالعنا في المرثاة الأولى ، حيث جــاء بالأسلوب الصريح المباشــر في أثناء توصيف الغلام (ذي الجبين الأبيض) ، وفي الأسلوب غير المباشر المستنبط من السياق في (أسرار الثلوج) ، يعد هذا اللون مركز إشعاع وجذب نفسي وعلامة

---

[٢٣] في النقد الحديث ، د. نصرت عبد الرحمن :٢٢.

[٢٤] ينظر:الشعر والفنون الجميلة ، إبراهيم العريض ٥٧ .

[٢٥] ينظر: مبادئ النقد الأدبي، أ .ا. رتشاردز:٢١٣ .

[٢٦] ينظر : نظرات جديدة في الفن الشعري ، إبراهيم العريض :١٩.

بارزة للنقاء[٢٧] ، والشاعرة بتوظيفها إياه ليس بمعناه الحسي القريب ، بل بمفاهيمه المتداولة بين الناس فما هو في الحقيقة إلا دلالة أولية تحيل التكنية فيها على دلالات أخرى تنسجم وطبيعة هذا اللون . ومن ثم نستجلي اللون الأحمر الذي لم يرد صريحا الا أنه يشع من الوجه الخجول مضطلعا بمهمة دلالية في هذه اللوحـــة الشعرية . ويخيم اللون الأســـود على جو المراثي فيأتي بتشكلات تصويرية عدة ، فهو تارة ينبجس من الظلام والدجى ، والظلام القابع في الزوايا الغيهبيات ، وفي الأعماق السحيقة ، وتارة أخرى يكشف عنه سياق الصورة الاستعارية نحو (غامق الأسرار) ، فاقتران دلالة السواد الناتج عن العتمة والكثافة بالأسرار يشير إلى انعدام الرؤية وهي بدورها تحيل على الغموض وعدم إمكانية الكشف

---

(٢٧) استقرى احمد مطلوب دواوين نازك المطبوعة فوجد أنها استعملت كلمـــة (الـــثلج) (٥٢ مرة) للدلالة على أربعة أمور :

الاول : مقابل النار ، الثاني : مقابل الدفء ، الثالث : مقابل الموت والقـــضاء علـــى الزرع ، الرابع : اللون .

وأن الغلام السارق أسرار الثلوج هو (الموت) وهذه دلالة على برودة الموت . أمـــا (الغلام) في قصيدة (شجرة القمر ــ الديوان : ٤٢٥/٢) فهـــو رمـــز للـــشاعر أو (الفنان) ، كما قالت نازك نفسها في مقدمة ديوانهـــا (شـــجرة القمـــر ، الـــديوان : ٤١٥/٢) ، وأشار احمد مطلوب الى هذه الدلالة في بحثه (لغـــة نـــازك الملائكـــة) المنشور في كتابه (في الشعر العربي الحديث) الصادر ببغداد عـــام ٢٠٠٢م . ـــ الباحثة ـــ .

عن الخبايا فتعمى الحقائق . ونجد أيضا أثر الصورة ذات الطابع السمعي ، حيث يلف الصمت المراثي ، ويصيرها إلى فعل السكون والصمت الأخرس وغياب الحركة ، استطاعت الشاعرة أن تنقلنا إلى تلك الأجواء عبر دلالات (الصمت ، السكون ، الهمس ، الموسيقى الخفية ، الأنين الخافت ، الألحان المهموسة ، الأسى المختبئ خلف العروق ، الدموع الخرساء) ، حيث تتعمق فكرة الإحساس بالموت بالانقطاع عن العالم ، والحياة بصوتها وضجيجها الدال على الحيوية ، وقد أكدت صفة الخرس في نسيج الاستعارة المكنية التي توحي بدلالة اقتران الصمت بعالم الأبدية[٢٨] ، ونجد براعة الشاعرة في حسن توظيفها الحواس وانعقادها ضمن شبكة متعالقة تنصهر فيها جميعا كي تفعل التصوير ، وإنّ نظرة استقصاء للمراثي من شأنها أن تنقلنا مابين فضاء بصري وسمعي وذوقي ولمسي فضلا عن تفعيل المعطى الحسي الذي يرتكز على تشغيل طاقة الجذب عبر نافذة الأنف[٢٩] ، حيث يفوح العبق من بحر أريج ، والعطر الذي يسكن في كل قلب (وسنعطيها مكانا عطرا في كل قلب) ، و (شذا حزن عميق القعر خصب) ، ونجد براعة الشاعرة في توظيفها المعطى الحسي ، في أسلوب لافت ،ولاسيما الطابع الحركي للشخصية الذي تجسده الالفاظ (أهدأ من ماء الغدير) وهو يفيض رقة واحساسا فهو (الغلام الحساس ذو الاعين الغرقى) ، وهنا تستدعي الشاعرة شهادة

---

[٢٨] ينظر:الصور الاستعارية في الشعر العربي الحديث ، د. وجدان الصائغ:١٣٥.

[٢٩] ينظر : أساليب الشعرية ، د. صلاح فضل :٥١.

بصرية تتمثل بحركية الدمع في مآقي العيون ، فهي لم تقل ، ذو قلب رقيق ، لأنَّ ذلك لا يرى بالعين ، فكان أن استدعت شهادة الدمع المتدفق المرئي ، لاستمالة المتلقي إليه في عملية تصديق وتجاوب لاستقبال آثار المعطى النفسي المنبثق من السياق . ويتواشج السمع والشم والبصر واللمس فتتداعى إحساسات تنتمي إلى سجلات حسية مختلفة[٣٠] ، ويتّجلى ذلك في أكثر من مقطع منها:

وأخذناه في خشوع
إلى أعماق أفراحنا وقَعْرِ رؤانا
ومنحناه كل ما جمع الحب
من اللون والشذا لصبانا
ورصفنا له هوانا
وما أبقى لنا الموت والأسى من منانا
وغسلنا جبينه بدموع
صامتات عطشى تذوب حنانا .

والمقطع الآتي :

(لم يزل هامسا لنا ((إنها ماتت))
على مسمع الشذا والضوء
إنَّ فيه من وجهها وأمانيها
وأشواقها بقية دفء

---

[٣٠] ينظر : بنية اللغة الشعرية:١٢٤.

وهو إحساسها يعود إلينــا

مرعشا من كياننا كل جزء

تظهر أنماط التراسل في المقطعين فتحيلنا على تكوين رؤية شمولية تكون أكثر عمقا وثراء ، ولاشك في أن اكتناز المقطع بغابة من الصور الحسية المتوالية يسهم في نقل المتلقي إلى أعتاب عالم تخييلي يكون له فيه حظ أوفر في الشعرية . إنَّ الصورة في شعر نازك عالم كبير مكتنز بطاقات وفضاءات سحرية لا يقف عند حد معين بل ينفتح ناهلا من مشارب شتّى فتارة تتراسل الحواس ، وأخرى يفوح منها عبق الطبيعة فتغدو القصيدة لوحة تشكيلية أبدعتها ريشة فنان ، وفي ذلك يقول الدكتور أحمد مطلوب ((كانت الصورة عندها هي الطبيعة فإذا تبعثرت جزئياتها اختلت الصورة وإذا اتسقت زهت الألوان ، أي أنَّ ألفاظ الطبيعة كانت الأداة الأولى في تركيب تلك الصور . ولا يكاد موضوع من موضوعات شعرها يخلو من ألفاظ الطبيعة الحزينة أو المشرقة ففي مراثي أمها تلجأ إلى تلك الألفاظ وتقول :

إنها زهرتنا الوسنى الحزينة　　　أمسنــا في لونهــا مــا زال لدنــا

فمنحناهــا مآقينــا السخينة　　　وحملناها مع الذكرى وعدنا))[٣١]

زخرت قصيدة (ثلاث مراث لامي) ، بألفاظ الطبيعة ووظفتها الشاعرة للتعبير عن المأساة التي حلت بها يوم ماتت أمها وودعتها في

---

(٣١) الشعر العربي الحديث ، الدكتور احمد مطلوب:٢١٩وينظر البيتان في قرارة الموجة١١١.

ثرى لندن . ومن هذه الألفاظ (البحر ، الثلوج ، الماء ، الغدير ، زنبقة ، الضوء ، الزهرة ، الغابة ، التل ، الربوة ، الريح ، الرياح ، الزهرة) وقد بينا انزياحات دلالة تلك الألفاظ من معانيهـا الحقيقية لتعبر عن حالة الشاعرة وهي تنظر إلى أمها المريضة ، ثم إليها وقد وسدت في الثرى لتعود وحيدة تحمل الذكرى .

أسلوبية سَرْد الحدث :

على مستوى تراتبية سرد الحدث تقودنا حدقة الشاعرة السريعة فـي تحديد البؤرة وتكثيف الرؤية وإضفاء المعنى على الحدث ، هذه الـسرعة القادرة على اقتناص الكون في مشهد ومفاجأة الحياة وهي تنبض ، والقبض على حركتها وحرارتها معا هي أداة الشعر في تنظيم أوضاع اللغة وتكوين الأسلوب[٣٢] .

يتبلور من خلال الجانب السردي الذي يحكي حدثا واقعيا تلتزم فيه الشاعرة التدرج المنطقي ، أولا : التهيؤ له والترحيب به ، فهو الغلام الذي يكون بؤرة تفجير الحدث ، وهذا الحدث ليس آنيا مرحليا بل هو ذو طابع متنام مستمر، وكمـا سبق وأسلفنا أن الذات المبدعة تؤسـس للفرادة والاختلاف ، فما أمكننا استخلاصه من المراثي الثلاث المتميزة هو كيفية التعامل مع الحدث في بنيته العميقة التي تجعل المتلقي بين دائرة مغلقة يحكمها أمران :

---

[٣٢] ينظر :اساليب الشعرية :٩٢.

الحقيقة الوجود	التفاعل الديناميي معها
الفعل	تداعيات الفعل
سلطة غالية	ردود أفعال الشخوص تجاه الظروف
ملكوتية ذات اتصال رباني	ردود انسانية
قوة نافذة	قوة راضخة

ثانيا : عدم إمكانية الاعتراض على منفذ الحدث ومنعه ، وهنا ينتقل الحدث إلى دائرة التنفيذ وانجاز المهمة المنوطة بمنفذها ، والواقعة على شخص معين ، فيتخطى الحدث هذا الثنائية مشركا فيها شخوصا آخرين ، فتكون نتائج الحدث ، الذي اكتملت خيوطه المتمثلة بـ (الفعل خارج نطاق الانجاز ، الفعل ضمن دائرة الانجاز والتنفيذ ، نتائج الفعل) ، ولا يخفى الطابع الحركي للزمن المتسلسل والمتابع لسيرورة الحدث، متماشيا معه في حركته منقطعا بانقطاعه ، فحينما يتدخل الجانب الوصفي القاطع للحدث يترتب عليه انقطاع زمني .

إنَّ الإنسان هو كائن يتحفز بالمثيرات وليس ثمة مثير أقوى من الموت لتفجير صرخات الألم والمعاناة ؟

تنمو حركية القادم المنفذ للفعل لتبلغ درجة قصوى تتصاعد فيها حدة التوتر ، فهو (الموت) قاس لايرحم الصغير والكبير، وهو غير خجول لأنه يدهم الارواح فيخطفها ، وهو لن يصاب بأذى حين يقوم بذلك الفعل ، ولن تجرحه ردود الأفعال من بكاء وأنين ، إن ماتم عرضه من فعل ورد فعل ، وماظهر من توصيفات للقائم بالفعل ما هي إلا دلالات غير حقيقية ، وقد انزاحت عن معانيها ، وإلا كيف تفهم قصيدة الرثاء وتلك أوصاف الموت؟

كل هذا والموت يحيا في الدموع الخرس وهو غائب عن العيون ، وكل أوصافه الواردة في النصوص تدل على خفائه يحس به الباكون في قلوبهم ولا يرونه ، وهنا انتقلت الشاعرة من الأوصاف الظاهرة للعيان إلى الصفات الحقيقية للموت .

وما للإنسان وقد حل به الحدث المفزع وهو الموت إلا أَنْ يلقاه بالالم والدموع ، ولكن الشاعرة تقول إِنه أجمل من كل الافراح ، وما هو الا تكذيب للواقع المرير .

وتستمر الشاعرة في سرد الحدث باضفاء صفات أخرى على الموت ، وكأنه إنسان تبلل عينيه الدموع الخرس ، وتتكرر هذه العبارة في المرثاتين الاولى والثانية ، وفيهما تعود الشاعرة إلى قصيدتها (الخيط المشدود في شجرة السرو)[٣٣] ، وكما صدم الفتى فيها بموت حبيبته ولم يبق الا الخيط المشدود في شجرة السرو، تصدم الشاعرة بموت أمها التي كانت آخر خيط مشدود في شجرة السرو، التي لم تجب حين سئلت عن الفقيدة (وهمسنا باسمه في سمع سروء فتناست في الدجى ما سمعته) ، والسروه عند نازك دلالة على الموت ، فقد كانت الحياة تدب لأن خيطها لم ينقطع بعد ولم يكن من ذلك الخيط الاخير الا أن يهمس ((انها ماتت)) ، وتتكرر هذه الكلمة وينجح التكرار في كشف الحالة النفسية لمن فجع بالموت[٣٤] . ثم تأتي الحلقة الاخيرة لسرد الحدث ، لقد انتهى كل شيء

---

[٣٣] تنظر القصيدة في ديوان نازك الملائكة : ١٨٥/٢ .

[٣٤] ينظر :المؤثرات الاجنبية في شعر نازك الملائكة ،د.سلمان الواسطي٥٩.

ووسدت الأم في لندن ، وعادت الشاعرة وحيدة لا تملك الا الذكرى الحزينة ، قالت نازك : ((ثم عدت بالطائرة الى بغداد وحيدة لا رفيق لي إلا الدموع بعد أنْ دفنت رفيقة سفري الغالية))[٣٥] .

تم إخراج الحدث في أجواء متناقضة متعارضة تتحول فيها الدلالات ، وإنّ التعارض ناجم عن فعل المزاوجة بين الثنائيات المتضادات ، وتؤدي هذه المزاوجة إلى خلق خطاب إيهامي تتولد المفارقة منه ، بحيث يتصور المتلقي أنه يُراد منه الفرح والتسليم بيد أنه عندما يتعمق إحساسه بالنص وبمكوناته يكون كسر أفق التوقع وخيبته.

تبدو الشاعرة في عالم مشرق ، وهذا بخلاف الواقع ، وبخلاف الكلمات والعبارات التي تدل على الحزن والاسى :

الحزن/ الزوايا / الغيهبيات / السكون / النوح / العويل / الباكون / الالم / كئيب / الاسى / الموت / السوداء / الانين / .

وتضاد هذه الالفاظ الحزينة :

المرهف / الاريج / الابيض / الماء / الخجول / الحب / التقديس / النجوى / العيون / الشفاه / الصلاة / السلوى / الجمال / الفرح / الشوق / العطر / القلب / الشذا / الرقة / رعشة الاوتار / الافراح / الحنان / الضوء / الضحكات / الاغاني / الالحان / الكنز / الفجر / الابتسام / الزهرة / الصباح .

---

[٣٥] انشودة المجد ، ام نزار الملائكة : ٢٤.وينظر، يغير الوانه البحر١٩.

شكلت هذه الثنائية المتضادة المرثاة ، ونازك في هذا التشكيل خرجت على عالم أسلوب الرثاء الذي عرفه الشعر العربي منذ الجاهلية ، ولا يكاد قارئ القصيدتين الاولى والثانية يدرك أنه في الرثاء على الرغم من عنوانيهما (أغنية للحزن) و (مقدم الحزن) ، وكل هذا يدخل في أسلوب تحول الدلالة وانزياحها ضمن السياق العام .

لاشك في أنّ معاني الرثاء مألوفة شائعة ، ولكن صياغيتها ترسم لها صورة جديدة تنم على براعة وقدرة المبدع على التصوير[٣٦] ، ويكفينا قول الجاحظ ((وإنما الشعر صياغة ، وضرب من التصوير))[٣٧] والصورة هي الوسيلة لنقل الشعور أو الفكرة ، وهي أداة للتعبير عن خبايا النفس ومكنوناتها[٣٨] .

لقد عبرت الشاعرة عن احساسها بهذا الأُسلوب من غير أنْ تلجأ الى الصورة القديمة ومنه التشبيه الذي لا يعطي إحساسا عميقا كتحويل الكلمات إلى معانٍ جديدة ، أو إعطائها صفات يظن أنها حقيقية ، ولكنها في خلد الشاعر وذهن المتلقي غير ذلك .

---

(٣٦) ينظر: دلائل الاعجاز:٢٥٤، أسرار البلاغة:٣١٧، وفصول في الشعر، د.أحمد مطلوب :١٥٩.

(٣٧) الحيوان : ١٢٣/٣ .

(٣٨) ينظر: يسألونك ، عباس محمود العقاد:٦١، والشعر العربي المعاصر:١٣٤، والتفسير النفسي للأدب :٧١.

البنية التركيبية مثير فاعل في الابداع الأسلوبي :

يظهـــر مستوى التركيب المنظـــم مستوى التجلي الدلالي ، عبر التحامهما معا ، والدرس الأسلوبي لا يقف عند بنية التركيب بل يكتنه أبعادها الدلالية ، والشعر كما هو معروف ((بنية ذات عناصر متضافرة أصوات ومعجم وتركيب ودلالة))[٣٩] ، فالبحث عن خبايا الدلالة يتكشف عبر التركيب والسياق العام

إنَّ السمة الأسلوبية البارزة في المراثي الثلاث تتمثل بنسق من التراكمات التركيبية ، إذ نجد في المرثاة الاولى ، تراكم الجمل الاسمية المتصدرة بـــ (إنَّ المؤكدة) ، التي بسطت هيمنتها على فضاء النص في (إنه جاء الينا عابرا ، إنه أهدأ من ماء الغدير ، إنه أجمل من أفراحنا ، إنه زنبقة ...، إنه حزننا الصبي ، إنه خيطنا..، إنه كل ما تبقى لنا) .

وتحتل الافعال المضارعة مساحة واسعة في القصيدة الاولى ، وتبدو البنى اللسانية متناسقة ودلالة السياق، فلو تأملنا المفردات التي شحن بها النص : (تجرحوه ، يجرحه ، يضنيه ، يبحث ، يتلقاه ، يقتات) لوجدنا المعاني الثاوية تحت كل دالة من هذه الدوال تنسجم وطبيعة التجربة الشعورية السائرة نحو التحول والتجدد، وترد أفعال المضارعة مقترنة بحرف السين الدال على الاستقبال في جمل متراكمة تراتبيا في (وسنلقاه مصلين ، وسنحبوه أسى، وسنعطيه عيونا ، وسنعطيها مكانا) .

---

[٣٩] دينامية النص : د.محمد مفتاح :٦١.

إنّ ارتهان الافعال بالمستقبل الاستشرافي تلخيص مكثف للحدث عبر حدقة الشاعرة ورؤاها الخاصة ، وإنّ اسقصاء العبارات يشي بمفارقة دلالية ، وتعارضات حادة ، لأن التقديس والتأليه يقتضي الرضوخ والتسليم ولا يقتضي التوجع والشجو وحرارة الادمع البكر وقوة الاسى وفاعليته الظاهرة عيانا تجلوها العيون والجباه والحزن المتوسد الاضلع والثاوي في قرار عميق .

وينتقل التعبير عن الحدث من الزمن الحاضر والمستقبل إلى الماضي الذي يومئ بانقضاء الحدث بذاته ، فهو منقطع يدخل ضمن دائرة الثبوت والتحقق بَيْدَ أَنَّ نتائجه مستمرة في الذوات.

هكذا استطاعت نازك أنْ تتعامل مع حزنها الكبير فكانــت مرثاتهــا بكائية تعبر عن مرارة التجربة بكــل آساها وتوجعها لقــد غنــت نــازك حــزنــا بأداء تعبيري متميز بفرادته وخصوصيته.

الخاتمـــة :

(١) إنّ إجراءات التحليل التي قام عليها هذا البحث نابعة من داخل النص ، نافذة إلى الخارج ، تستجيب لجدلية التفاعل بين الــدال والمــدلول فــي محاولة للكشف عن براعة الاداء وجمالية التصوير.

(٢) شكلت تداعيات الحدث سببا رئيسا فــي حــصول المفارقــة ، فنظــام الملفوظات المنطوق المرئي المحسوس يشتغل على تحول الدلالة ، الذي يفضي بنا إلى إعادة النظر في تلك التشكلات والبحث وراء خبايا اللفظ ، فكيف يكون الغلام الحساس الخجول فــي الآن ذاته عابرا خاطفا سارقا ، فالدوال تختزن طاقات ترفد النص وتثري دلالته.

(٣) حاولت الذات المبدعة أنْ تؤسس لها كينونة خاصة ورؤية مغايرة تشط عن المألوف عبر نظام فهم العالم والوجود الذي يزيح كل أثر للديمومة والخلود .

(٤) أرادت الشاعرة تجاوز ثنائية الحزن والفرح بخلق آليات تستوعب عمق المعاناة والأسى ، وتجعل الانقياد والتقديس الوسيلة الوحيدة لحفظ توازن الذات .

(٥) إنَّ المراثي الثلاث ليست من الشعر الحر وإنْ تنوع الوزن والقافية ، إذ نجد إلتزام الشاعرة ببحور الشعر العربي ، فقد التزمت بمجزوء الرمل في الاولى وقفلت راجعة الى الرمل الكامل في الثالثة ، لأنه يعبر عن تأجج العاطفة والحزن ، ففي القطعة الاولى كانت صدمة الموت وفي الثالثة كان أسى ودموع على الأم الثاوية التي ما لها من رجوع ، وعودة الشاعرة إلى الوطن يؤلمها الوداع ، ويستفزها السؤال عن الأم الراحلة ، والتزمت بالبحر الخفيف في الثانية ، ونوعت في القافية المزدوجة وهو من أهم ما سارت عليه في (مأساة الحياة) و(عاشقة الليل) وفي كثير من دواوينها الاخرى .

(٦) ولم تأت بجديد في لغة المراثي الثلاث وإن أعطت بعض الالفاظ دلالات جديدة ــ كما كشف عنها التحليل ، وجاءت بكلمات غير شعرية مثل : الضجيج لتقابل الاريج والثلوج ، وكلمة (الالم الخشن) ، وكلمة (القعر) ، وهي كلمة كررتها في قصائد أخرى ، وكلمة (شيء) ، وكلمة (جزء) ، وغيرها من الكلمات غير الشعرية ، ويبدو أنَّ الشاعرة لا تؤمن بالالفاظ غير الشعرية وإنما كل كل الالفاظ صالحة للشعر وإنْ جاءت غير مناسبة .

(٧) إن هــذه المراثـــي الــثلاث تختلــف عــن المراثـــي المألوفــة ، إذ تغيرت فيها دلالات الالفاظ ، وتم تصوير الحــزن والمــوت تــصويرا جديدا .

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

(١) أساليب الشعرية المعاصرة ، الدكتور . صـــلاح فــضل ، دار الآداب ، بيروت ط١ ، ١٩٩٥م .

(٢) أســـرار البلاغـــة ، الـــشيـــخ الإمـــام عبـــد القـــاهر الجرجـــاني (ت ٤٧١أو٤٧٤هـ) ، قـــرأه وعلـــق عليـــه : أبـــو فهـــر محمـــود محمد شاكر ، مطبعة المـــدني بالقـــاهرة ، دار المـــدني بجـــدة ، ط١، ١٩٩١م .

(٣) أسلوب المحاورة في القرآن الكريم ، د. عبد الحلـــيم حنفـــي ، الهيئـــة المصرية العامة للكتاب ط٢ ، ١٩٨٥م .

(٤) إشكالية التجديد الشعري ــ وجهة نظر ــ الدكتور ، أحمـــد مطلـــوب ، مجلة المجمع العلمي العراقي ، الجزء الثاني ، المجلد الثالث والخمسون ، بغداد ٢٠٠٦م .

(٥) أنشودة المجد ، أم نزار الملائكة ، بغداد ١٩٦٨م .

(٦) بنية اللغة الشعرية ، جان كوهين ، ترجمـــة ، محمـــد الـــولي ومحمـــد العمري ، دار توبقال ، الدار البيضاء ط١ ، ١٩٨٦م .

(٧) تأملات فلسفية ، الدكتور ، ناجي التكريتي ، الموسوعة الثقافية ، عن دار الشؤون الثقافية ، بغداد ، ٦٣ ، ٢٠٠٨م .

(٨) تحليل الخطاب الشعري (استراتجية التناص) ، الدكتور ، محمد مفتاح ، المركز الثقافي العربي ــ الدار البيضاء ــ المغرب ط٤ ، ٢٠٠٥م .
(٩) التفسير النفسي للأدب ، الدكتور ، عز الدين اسماعيل ، القاهرة ١٩٦٣م.
(١٠) الحيوان ، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، القاهرة ، ١٩٣٨م.
(١١) دلائل الاعجاز ، الإمام عبد القاهر الجرجاني ، قرأه وعلق عليه : أبو فهر محمود محمد شاكر ، مكتبة الخانجي بالقاهرة ، ط٥ ، ٢٠٠٤م.
(١٢) ديوان نازك الملائكة ــ دار العودة بيروت ــ ١٩٧١م .
(١٣) دينامية النص (تنظير وانجاز) ، الدكتور ، محمد مفتاح ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، الدار البيضاء ، ط٢ ، حزيران ١٩٩٠م .
(١٤) ديوان البحتري ، عني بتحقيقه وشرحه والتعليق عليه : حسن كامل الصيرفي ، دار المعارف بمصر ، ط٢ ، ١٩٧٢م .
(١٥) ديوان الهذليين (القسم الاول) ، طبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٤٥م .
(١٦) زمن الشعر ، علي أحمد سعيد (أدونيس) ، دار الساقي ، بيروت ، ط٦ ، ٢٠٠٥م .
(١٧) سايكلوجية الشعر ، نازك الملائكة ، دار الشؤون الثقافية ، بغداد ١٩٩٣م .
(١٨) شظايا ورماد ، ديوان نازك الملائكة ، بيروت ١٩٧١م .
(١٩) الشعر العربي المعاصر، الدكتور عز الدين اسماعيل، القاهرة ١٩٦٧م.

(٢٠) الشعر كيف نفهمه ونتذوقه، اليزابث درو ، ترجمة ، الدكتور ، محمد إبراهيم الشوش ، بيروت ١٩٦١م .

(٢١) الشعر والفنون الجميلة ، إبراهيم العريض ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٥٢م .

(٢٢) شعرية المغايرة دراسة لنمطي الاستبدال الاستعاري في شعر السياب ، الدكتور إياد عبد الودود الحمداني ، دار الشؤون الثقافية ، بغداد ط١، ٢٠٠٩م .

(٢٣) الصور الاستعارية في الشعر العربي الحديث، الدكتورة ، وجدان الصائغ ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ط١ ، ٢٠٠٣م.

(٢٤) عيار الشعر ، لمحمد بن أحمد بن طباطبا العلوي (ت ٣٢٢هـ) ، تحقيق وتعليق الدكتور ، محمد زغلول سلام ، منشأة المعارف بالاسكندرية ، مطبعة التقدم ، ط٣ ، ١٩٧٧م .

(٢٥) فصول في الشعر العربي ، الدكتور أحمد مطلوب ، منشورات المجمع العلمي العراقي ، ١٩٩٩م .

(٢٦) في الشعر العربي الحديث ، الدكتور ، أحمد مطلوب ، ط١ ، دار الشؤون الثقافية ــ بغداد ، ٢٠٠٢م .

(٢٧) في النقد الحديث ، دراسة في مذاهب نقدية حديثة وأُصولها الفكرية ، الدكتور نصرت عبد الرحمن ، مكتبة الاقصى ، عمان ١٩٧٩م .

(٢٨) قرارة الموجة ، نازك الملائكة ، بيروت ، ١٩٥٧م .

(٢٩) كتاب المجموع أو الحكمة العروضية في كتاب معاني الشعر ــ ابن سينا ــ تحقيق الدكتور ، محمد سليم سالم ، القاهرة ١٩٦٩م .

(٣٠) مبادئ النقد الادبي ، ا.أ رتشاردز ، ترجمة وتقديم : مصطفى بدوي ، مراجعة ، الدكتور لويس عوض ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة ، أبريل ، ١٩٦١م .

(٣١) المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها ، عبد الله الطيب ، دار الفكر ، بيروت ، ط١ ، ١٩٧٠م .

(٣٢) المفارقة ، الدكتورة نبيلة إبراهيم ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مجلة فصول ، سبتمبر ، أيلول ، ١٩٨٧م .

(٣٣) مفهوم الشعر عند السياب ، الدكتور، عبد الكريم راضي جعفر ، الموسوعة الثقافية ، دار الشؤون الثقافية العامة ــ بغداد ، ٥٥، ٢٠٠٨م.

(٣٤) المؤثرات الاجنبية في شعر نازك الملائكة ، الدكتور سلمان الواسطي ، اصدارات الكتاب الذهبي ، عن نازك الملائكة ، إعداد علي الطائي ، دار الشؤون الثقافية ، بغداد ، ١٩٩٥م .

(٣٥) نظرات جديدة في الفن الشعري ، إبراهيم العريض ، ط٢ ، الكويت ، ١٩٧٤م .

(٣٦) النقد الادبي الحديث ، الدكتور ، محمد غنيمي هلال ، ط٣، القاهرة ، ١٩٦٤م .

(٣٧) يسألونك ، عباس محمود العقاد ، ط٢، بيروت ، ١٩٦٦م .

(٣٨) يغير ألوانه البحر ، نازك الملائكة ، الهيئة العامة لقصور الثقافة القاهرة ١٩٩٨م .

جراحة العظام والكسور عند الأطباء العرب والمسلمين

الدكتور محمود الحاج قاسم محمد

طبيـب أطفـال ـ الموصـل

الملخص :

الغاية من البحث : إبراز مساهمات الأطباء العرب والمسلمين في فرع جراحة العظام والكسور.

الطريقة : إستعراض آراء وأفكار أربعة من مشاهير الأطباء العرب والمسلمين وهم (الرازي ، المجوسي ، إبن سينا ، الزهروي) في هذا الحقل ومقارنتها بما هو معروف في الطب الحديث .

الإستنتاج : أثبت البحث تطابق كثير من الآراء والنظريات التي ذكرها الأطباء العرب والمسلمون في جراحة العظام والكسور مع العلوم الطبية الحديثة في هذا الباب.

على الرغم من قلة ممارسة الأطباء العرب والمسلمين للجراحة بشكل عام وقيام بعضهم بذلك ، إلا أن أغلب كتبهم احتوت فقرات متناثرة في مختلف فروع الجراحة . بقي الحال كذلك حتى مجيء أبي القاسم خلف بن العباس الزهراوي (٩٣٧ – ١٠١٣) ، الذي خصص للجراحة مقالة كاملة في (كتابه التصريف لمن عجز عن التأليف) . وجراحة العظام ومعالجة الكسور نالت اهتماما خاصا من قبل غالبيتهم ، كما شكلت حيزا مهما في كتاباتهم الجراحية .

فيما يأتي نستعرض أهم ما جاء لدى أربعة من مشاهير الطب العربي الإسلامي من الأفكار والنظريات والإضافات حول جراحة العظام والكسور :

الأول – أبو بكر محمد بن زكريا الرازي (٢٥١- ٣١٤ هـ /٨٦٥ – ٩٢٧ م) :

له آراء في غاية الصحة في جراحة الكسور والجبائر يسجلها له التاريخ بفخر منها :

١ – من الأمور التي تسجل سبقا للرازي هو معرفته أن قلة التروية الدموية في العضو المكسور تؤدي إلى تأخر أو عدم شفاء الكسر ، وهذا الأمر له أهمية بالغة في طب الكسور الحديث ، ويستوجب أن يؤخذ دائما بعين الاعتبار عند معالجة أي كسر يقول الرازي ((ينبغي أن تضاد هذه العلل وأن تجذب إلى العضو دم بأن تطلبه بأشياء حارة تجعل الغذاء غليظا ويلزم العليل السرور والفرح ليكثر الدم ، فإن أكثر شيء في منع الانعقاد قلة الدم ، وأبلغ ما يستدل به على التعقد ظهور الدم على خرق الرباط))[1] .

٢ – من المعروف لدى أطباء الكسور اليوم أن حالات الاندمال المعيب Malunion تعالج بعد تصلب الدشبذ Callus بالتداخل الجراحي عليها لاستئصال الدشبذ العظمي وإعادة تقويم الطرف وتثبيته من جديد ،

---

[1] الرازي ، أبو بكر بن زكريا الحاوي في الطب ، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد ، الدكن – الهند ، الطبعة الأولى ١٩٦٢ ، ج ١٣ ، ١٨٧ .

وهذا ما أكده الرازي في قوله ((قد يعرض من عوج شكل العظم زمانة ، ولا ينبغي أن يقبل قول من زعم أنه يكسر العظم لأنه يعرض من ذلك غاية العطب ، لكن إذا كان التعقد طريا فلينطل ويضمد بالمرخية الملينة ويدلك ، ويمال العضو إلى الجانب حتى ينتقض اتصال الدشبذ ثم يسوى ، وإذا كان صلبا ولم ينتقض بذلك فليشق عنه ثم يقطع الدشبذ حتى ينعقد العظم ثم يقوم ويعالج علاج الجرح مع كسر))[٢] .

٣- لقد تنبه الرازي إلى حقيقة معروفة حاليا وهي كثرة مشاهدة تيبس المفصل بعد تثبيت كسر مجاور له ، وأن أفضل طريقة لعلاجه هي منع حدوثه بالتحريك المبكر للمفصل ، وأما إذا حدث التيبس فمن الضروري تحريكه تحت التخدير العام ، يقول في ذلك ((الكسور إذا وقعت عند المفاصل قريبة منها عسر بعد جبرها ثني المفاصل ، لأن غلظ الدشبذ يصير عليه ويحتاج إلى مدة . وأصحابنا يلزمونه التليين مدة طويلة قد تمتد أشهرا . ويأمرون ببسطه وقبضه . وأنا أرى أن يحتال فيه بما يلطف الدشبذ فإن ذلك الضيق في المفاصل إنما جاء من أجل غلظ دشبذ الكسر القريب منه))[٣] .

٤- إن فترة شفاء الكسور المختلفة التي ذكرها الرازي قريبة جدا مما هو معروف اليوم ، وأن كسور الأطفال والصبيان تلتئم على نحو أسرع من الكهول والشيوخ ، يقول الرازي ((إذا إنكسر الأنف التحم في عشرة أيام ، والضلع في عشرين يوما ، والذراع في أربعين يوما والفخذ في

---

[٢] المصدر نفسه ج١٣ ، ص٢١٢ .

[٣] المصدر نفسه ، ص ١٨٤ .

خمسين)) وفي موضع آخر يقول ((والساعد ينجبر في ثلاثين يوما أو خمسة وثلاثين وربما برأ في ثمانية وعشرين يوما على قدر إختلاف الأبدان ، فإنه متى كانت القوة قوية والذي فيه غلظ أسرع جبرا ، ويبطئ في الغلمان والمشايخ لرقة دم الغلمان – وأنه ينفذ منه كثيرا في غذائهم – وضعف قوة المشايخ)) وفي موضع آخر يقول أيضا ((عظام الصبيان يمكن أن تلتحم ، أما عظام الفتيان والشيوخ فلا ، وأما أن يجتمع على الجزأين المكسورين شئ يلزقهما فذلك يكون ، وسبب ذلك أن العظم يغتذي بغذاء يشاكله فيجمد على طرفي العظمين من فضلة غذاء العظم شيئان يلتزقان به))[٤] .

٥- يقول الدكتور عبد الناصر كعدان عن (فصل في فلكة الركبة = الرضفة Patella ((يعتبر هذا الفصل أحد الفصول الهامة جدا في مجال الجراحة الرضية عند الرازي . فمن المعروف حاليا أن كافة كسور الرضفة تعالج باستئصال الرضفة ، تماما كما ذكر الرازي ، إلا أنه في الكتب الأجنبية تسمى هذه الطريقة باسم طريقة Brooke [٥] ، وهو إسم الطبيب الذي نصح باستئصال عظم الرضفة وذلك سنة ١٩٣٧ . في حين نلاحظ أن الرازي نصح بذلك قبل Brooke بحوالي ألف سنة))[٦] .

---

[٤] المصدر نفسه ص ٢٣٦،٢٤٤ ، ١٢٩ .

[٥] Campbells Operative Orthopaedics, Vol.1,p.582.

[٦] كعدان ، الدكتور عبد الناصر : طب الكسور في الطب العربي الإسلامي ، دار القلم العربي ، الطبعة الثانية ، حلب ١٩٩٩، ص ٧٩ .

خمسين)) وفي موضع آخر يقول ((والساعد ينجبر في ثلاثين يوما أو خمسة وثلاثين وربما برأ في ثمانية وعشرين يوما على قدر إختلاف الأبدان ، فإنه متى كانت القوة قوية والذي فيه غلظ أسرع جبرا ، ويبطئ في الغلمان والمشايخ لرقة دم الغلمان – وأنه ينفذ منه كثيرا في غذائهم – وضعف قوة المشايخ)) وفي موضع آخر يقول أيضا ((عظام الصبيان يمكن أن تلتحم ، أما عظام الفتيان والشيوخ فلا ، وأما أن يجتمع على الجزأين المكسورين شئ يلزقهما فذلك يكون ؛ وسبب ذلك أن العظم يغتذي بغذاء يشاكله فيجمد على طرفي العظمين من فضلة غذاء العظم شيئان يلتزقان به))[٤] .

٥- يقول الدكتور عبد الناصر كعدان عن (فصل في فلكة الركبة = الرضفة Patella)) يعتبر هذا الفصل أحد الفصول الهامة جدا في مجال الجراحة الرضية عند الرازي . فمن المعروف حاليا أن كافة كسور الرضفة تعالج باستئصال الرضفة ، تماما كما ذكر الرازي ، إلا أنه في الكتب الأجنبية تسمى هذه الطريقة باسم طريقة Brooke [٥] ، وهو إسم الطبيب الذي نصح باستئصال عظم الرضفة وذلك سنة ١٩٣٧ . في حين نلاحظ أن الرازي نصح بذلك قبل Brooke بحوالي ألف سنة))[٦] .

---

[٤] المصدر نفسه ص ٢٣٦،٢٤٤ ، ١٢٩ .

[٥] Campbells Operative Orthopaedics, Vol.1,p.582

[٦] كعدان ، الدكتور عبد الناصر : طب الكسور في الطب العربي الإسلامي ، دار القلم العربي ، الطبعة الثانية ، حلب ١٩٩٩، ص ٧٩ .

حيث يقول الرازي ((قد يعرض لها (الفلكة = الرضفة) الرض والكسر أقل ، والشق تحته والتفتت . ويعرف ذلك من خشونة تحت اللمس والفرقعة والصوت ، فلتمد الساق وتجمع الفلكة إن كانت تقلصت وتسوى الشظايا . وإن كانت تنخس نخسا شديدا أخرجت ، ثم توضع تحت الركبة كرة))[٧] .

٦- تقدير الرازي أن التهاب المفاصل في أول أمره يحدث تقلصا في العضلات المحيطة بالمفصل تقدير صحيح لأن عسر الحركة في هذه الحالات يرجع إلى هذا التقلص لا إلى ما يعيب المفصل من داخله[٨] .

يقول لي : ((لولا أن مع التمدد وجعا شديدا لكان لا يحس لأن العضو ليس يميل ولا إلى جهة واحدة لكنه منتصب)) ويقول : ((التمدد الذي يكون من الامتلاء أو من ورم حار في مفصل فعالجه بالاستفراغ)) .

وينصح بعدم ربط الكسر ربطا محكما بالجبائر منذ الوهلة الأولى وذلك لاحتمال حدوث ورم في منطقة الكسر نتيجة تجمع الدم والمصل ومن ملاحظاته أنه يقول بأن طول مدة الشد يوهن العضو ويضعفه .

٧- يعتبر الرازي أول من وصف الكيسة المصلية (Ganglion) وحدد أماكن تواجدها . يقول في ذلك ((في تعقد العصب قد يظهر على اليد والرجل وبالقرب من المفاصل شئ شبيه بالسلع ، وفي الأكثر يكون بعقب التعب الشديد ، ويفرق بينها وبين السلع بأنها ألزم لمكانها من التسلع ولمسها لمس عصب ، وإذا غمزت عليها بشدة تبددت وذهبت ثم يعود

---

[٧] الحاوي ، مصدر سابق ، ص ٢١٠ .

[٨] الدكتور محمد كامل حسين ، الدكتور عبد الحليم العقبي : طب الرازي ، ص ٨٦ .

بعضها ، وعلاجها أن يغمز عليها فإن تبدد بالغمز وإلا فمنها ما يدق بمطرقة خشب فتتبدد ثم توضع عليها جبيرة وتشد فإنها لا تعود ، وإن كثرت أو عظمت فإنها تحتاج أن تتقى البدن . وربما كانت عظيمة إلا أنها تكون مفرطحة كما كان في مأبض ركبة إمرأة))[٩] .

من الملاحظ هنا أن الرازي قد تحدث عما نسميه اليوم بكيسة بيكر (Bakers cyst) والأكثر من ذلك فإن بيكر قد وصف هذه الكيسة سنة ١٨٧٧ ، وكان يعني بها الكيسة الناجمة عن درن الركبة .

(Tuberculous infection) والذي أصبح نادر الحدوث حاليا. واصبحت تطلق كيسة بيكر حالياعلى الكيسة المصلية التي تحدث في المأبض والتي غالبا ما تكون ناجمة عن الإصابة بإلتهاب المفاصل الرثوي (heumatoid arthritis) . من ذلك نجد أن الرازي كان الأسبق بوصف هذه الكيسة من الطبيب Baker .[١٠]

ثانيا : علي بن العباس المجوسي (كان حيا ٣٨٤ هـ/٩٩٤م) :

أتى على ذكر أنواع الكسور وله في بعضها آراء قيمة من ذلك :

- كان من أوائل الذين وصفوا كسر الفك الأسفل في غاية الدقة وكذلك كيفية علاجه ، وجاء وصفه شبيها إلى حد كبير مع الطريقة المتبعة في معالجة كسور الفك ، اللهم إلا بإدخال بعض التقنيات الحديثة المستخدمة في العلاج الجراحي . يقول :

---

[٩] الحاوي (مصدر سابق) ج١٣ ، ص ١٧٦ .

[١٠] كعدان (مصدر سابق) ص ١٩٢ .

((متى انكسر اللحى الأسفل من خارج ولم ينفصل ما انكسر فينبغي أن تنظر فإن كان الكسر في الفك الأيسر فينبغي أن تدخل الإصبع الوسطى من اليد اليسرى والسبابة في الفم وترفع بهما الحدب الحادث في الفك إلى الخارج حتى يستوي وتسويه على شكله من الخارج باليد اليمنى . وإذا كان في الفك الأيمن فادخل أصابع اليد اليمنى وافعل بها مثل ما ذكرت لك . وأنت تعرف رجوع الفك إلى حاله من استواء الأسنان التي فيها ورجوعها إلى أصلها الطبيعي . فإن انكسر اللحى واندار ما انكسر فينبغي أن تستعمل المد من الناحيتين بمعاونة بعض الخدم لك حتى ترده إلى حقه وشكله وينبغي أن تشد الأسنان التي في اللحى المكسور برباط من ذهب أو فضة بعضها إلى بعض إن أمكن ذلك فإن لم يمكن فتربط بخيوط من ابريسم مفتولة فتلا جيدا ثم تستعمل الرباط الذي ينبغي أن يربط وهو أن يصير وسط الرباط على القفا وتمد الطرفين من الجانبين وتمر بها على الأذنين إلى أن يصير اللحى إلى محله))[١١] .

تعريفه لكسور الجمجمة كانت دقيقة حيث ذكر الشق البسيط والقوي وقال عن الشق القوي هو شق مع خروج العظم المكسور إلى خارج وعرف الكسر الشعري في كتابه كامل الصناعة الطبية بقوله : ((ومن الناس من يضيف إلى هذه الأنواع نوعا آخر يسمى الشعري وهو شق رقيق يخفى عن الجس وهو كثيرا ما يخفى بلا تبين المس وربما كان سببا للهلاك)) . ثم بين أن أخطر هذه الكسور لا يرتبط بأشكالها فقط بل يرتبط

---

[١١] المجوسي ، علي إبن العباس : كامل الصناعة الطبية ن المطبعة الكبرى بالديار المصرية ، ١٢٩٦ هـ ، ج٢ ص٥٠٤ .

بآلية حدوثها وبالأعراض العصبية الناتجة عنها . كما نوه بطريقة تـضميد الجمجمة بعد جراحتها مبينا ضرورة عدم شدها شدا قويا لما لذلك من الأثر الضار على المريض فقال : ((فخذ خرقة كتان وأغمسها فـي دهـن ورد وتضعها على الجرح كله برفق وتشد برباط شدا رقيقا بمقدار مـا تثبـت الرفائد على الموضع))[١٢] .

ثالثا – أبو علي الحسين إبن علي ابن سينا (٣٧١-٤٢٨ هـ/ ٩٨٠-١٠٣٧م)

أما ما ذكره في هذا الحقل :

١- خالف الآخرين عندما أكد أن الأعضاء الصلبة في الجسم كالعظام قابلة للالتهاب والتضخم والأورام . يقول : ((ليس كما ظن بعض المتطببين أن الدماغ لا يرم بنفسه محتجا بأن ما كان لينا كالدماغ أو صلبا كالعظام فإنه لا يتمدد وما لا يتمدد فإنه لا يرم فإن هذا الكلام خطأ وذلك لأن اللين اللزج يتمدد والعظام أيضا ترم ....))[١٣] .

٢ – وفي الكسر بصورة عامة يتكلم ابن سينا على أصول كلية في الكسور ويصف عللا علاماتها ومضاعفاتها وفي أحكـام الانجبار يتكلـم علـى التحامها بالدشبذ ويقول : ((إنها تتكون فـي أول الأمـر مـن أنـسجة غضروفية)) ، ويتكلم على أهمية تثبيت الكسر بالجبائر فيقول :

---

[١٢] – جراحة الجمجمة والدماغ عند الأطباء العرب ، الدكتور عبد القادر عبد الجبـار : من أبحاث مؤتمر الطب الإسلامي – الكويت ١٤٠١ = ١٩٨١ .

[١٣] – القانون : ج ٢ ، ص ٤٤ .

((والأسباب التي لأجلها لا ينجبر العظم كثيرة ، التنطيل أو كثرة حل الرباطات وربطها أو الاستعجال في الحركة)) . ويصف الالتئام الخاطئ (Malunion) حتى لو احتاج الأمر لتدخل جراحي . فيقول : ((ربما كان كسر قد انجبر لا على واجبه فيحتاج أن يعاد كسره ، ولئن لم يكن ذلك عند الكسر الأول فيكسر غيره من المواضع ، وإن لم يكن فيشرح اللحم)) . وفي علاج عدم الالتحام أو تأخره يقول : ((وإذا عرض الكسر أن لا ينجبر جبرا يعتد به فيفعل له شيء يشبه الحك في القروح التي لا تبرأ ، وهو أن تدلك باليدين حتى تتنحى اللزوجة الخسيسة الضعيفة التي كانت كأنها ليست بشيء ويندفع إليه دم جيد جديد))[١٤] .

٣ - أوضح حقيقة علمية كبيرة في كسور الجمجمة وهي أن عظام الجمجمة إذا انكسرت لا تلتئم بالطريقة التي تلتئم فيها باقي عظام الجسم بل تبقى منفصلة وبشكل دائم وما يجمعها ببعضها بعد الكسر نسيج ليفي مجمع فقال : ((فاعلم أن عظام الرأس تخالف عظاماً أخرى إذا انكسرت لم تجر الطبيعة عليها دشبذا قويا كما تجريه على سائر العظام بل شيئا ضعيفا)) .

وخالف جالينوس في طريقة معالجة الكسور الغائرة والمتفتتة وكذلك استعمال الأدوات الجراحية .

وفي مكان آخر وفي إصابة الجمجمة أرسى قواعد ثابتة ومستعملة إلى اليوم حيث إن العلاج الجيد لارتجاج المخ هو إحداث حالة نقص المياه بالجسم وهذا يخفف من الضغط داخل الجمجمة ولكننا نستعمل مدررات

---

[١٤] الدكتور محمد كامل حسين : الموجز في الطب والصيدلة ، ص ١٠٤ .

البول بدلا من المسهلات ، يقول : ((فإذا داوم الورم الحار ولم يكن شيء مانعا من أخذ الدواء مسهلا مرة يفعل ذلك))[١٥] .

٤- من المعروف اليوم أن كسور الأطفال تلتئم بشكل أسرع وأفضل من الكسور التي تحدث لدى البالغين ، يؤكد إبن سينا هذه الحقيقة فيقول ((العظام المنكسرة إذا ردت إلى أوضاعها أمكن في الأطفال ، ومن يقرب منهم ، أن ينجبر لبقاء القوة الأولى فيهم ، فأما في سن الفتاء وما بعده فلا ينجبر ، بل يجري عليه لحام من مادة غضروفية تجمع بين العظمين)) .

ثم يحدد الزمن اللازم لإنجبار كل عضو فيقول ((والأعضاء تختلف في مدة الإنجبار ، فمثلا الأنف ينجبر على ماقيل في عشرة أيام ، والضلع في عشرين ، والذراع وما يقرب منه في ثلاثين إلى أربعين ، والفخذ في خمسين ، وربما امتدت هذه مدة طويلة حتى ينجبر الفخذ إلى أشهر ثلاثة أو أربعة وما فوقها))[١٦] .

٥- وفي فصل في نصبة المجبور يوضح وضعية العضو بعد أن يتم تجبيره ، فينصح مثلا أن تشد إليه اليد المكسورة بعد تجبيرها إلى الرقبة . وهو ينصح دائما برفع العضو المجبور إلى فوق ما لم يمنع مانع ، وذلك كما يقول من أجل تخفيف الألم في العضو المكسور .

---

[١٥] جراحة الجمجمة والدماغ عند الأطباء العرب ، الدكتور عبد القادر عبد الجبار : من أبحاث مؤتمر الطب الإسلامي – الكويت ١٤٠١ = ١٩٨١ .

[١٦] إبن سينا ، أبو علي الحسين : القانون في الطب ، دار صادر – بيروت ، ج٣ ص ١٩٧ – ١٩٨ .

وهذا يتطابق كثيرا مع الآراء الحديثة خصوصا لتخفيف الورم أو الوذمة Odema[١٧].

٦ – سبقه في ذكر نظرية التجبير المتأخر (Delayed Splintage Theory).

يعتبر البروفيسور البريطاني George Perkins رائد هذه النظرية وواضعها[١٨]. وبالرجوع إلى كتاب القانون نجد أن إبن سينا وقبل البروفيسور Perkins بنحو عشرة قرون قد تحدث عن هذه النظرية. يقول إبن سينا.

((الوقت الذي يجب أن توضع الجبائر هو بعد خمسة أيام فما فوقها، إلى أن تؤمن الآفات. وكلما عظم العضو وجب أن تبطئ بوضع الجبائر، وكثيرا ما يجلب الإستعجال في ذلك أفات الأورام والحكة والنفاطات (تغيرات في الجلد). لكن إذا أخرت الجبائر فيجب أن يكون هناك ما يقوم مقامها من جودة الربط بالعصائب ومن جودة النصب))[١٩].

هذا السبق العلمي لإبن سينا أوضحه الزميل الدكتور عبد الناصر كعدان في العديد من الأوساط العلمية المهتمة بتاريخ الطب، وتم إقراره من قبل بعض الأوساط مثل المجلة الطبية الأمريكية، والجمعية الدولية لتاريخ الطب ومؤتمرات طبية أخرى[٢٠].

---

[١٧] كعدان (مصدر سابق) ص ١٠١.

[١٨] Alley's System of Orthopaedic and Fractures.P.344

[١٩] أبن سينا : القانون، ج٣ ص ٢٠٣.

[٢٠] كعدان (مصدر سابق) ص ١٠٣.

٧- ((في حديثه إبن سينا عن كسور العضد ينبه إلى ضرورة إجراء تثبيت الكسر والمرفق بحالة الثني وليس بحالة البسط ، وهذا الأمر يعتبر حاليا من المبادئ الهامة في معالجة كسور العضد ، والأمر الثاني هو أن فترة التجبير في كسور العضد حددها إبن سينا بأربعين يوما كحد أدنى وهي الفترة الزمنية المعروفة حاليا واللازمة لشفاء كسور العضد)) .

((وفي كسور عظمي الساعد يتكلم إبن سينا عن كسر أسفل الساعد وهو المسمى حديثا بكسر كوليس Colles Fracture فيعتبره أسوء وأقبح من كسور أعلى الساعد وهذا الأمر صحيح حاليا ، إذ أنه كثيرا ما يسبب تشوه أسفل الساعد))[٢١] .

٨- وفي فصل في كسر عظام الأصابع يتكلم إبن سينا على كسر يعرف حديثا بكسر (بنيت Bennet الذي وصف هذا الكسر سنة (١٨٨٢) الذي يصيب قاعدة إبهام الكف ، وقد تحدث عنه إبن سينا بشكل عابر حين قال ((وإن كانت الإبهام مائلة نحو الأسفل)) لذلك يمكن القول بأن سينا قد سبق بنيت في وصفه لهاذا الكسر بكلام مقتضب جدا . ويشير بعد ذلك أبن سينا لمعالجة كسور الأصابع فينصح بربط الإصبع المكسور إلى الأصابع المجاورة السليمة الأخرى. وهذه الطريقة لا زالت هي المتبعة حاليا في معالجة كسور الأصابع))[٢٢] .

---

[٢١] المصدر نفسه ص ١١٨-١١٩ .

[٢٢] المصدر نفسه ص ١٢١ .

رابعا – أبو القاسم خلف إبن العباس الزهراوي (٣٢٦- ٤٠٤ هـ / ٩٣٧ – ١٠١٣م)

تكلم الزهراوي على الكسور والخلوع التي يمكن أن تصيب جسم الإنسان ورتبها وبوبها مبتدأ بالرأس ومختتما بالقدمين وبشكل قريب جدا مما نراه اليوم مدونا في كتب الطب الحديثة . أما إبداعات الزهراوي في هذا المجال فهي :

١ – ما تميز به الزهراوي هو طريقة التشخيص الجراحية معتمدا على العلامات والأعراض السريرية وفي كسور الجمجمة بالذات يضيف للأعراض والعلامات طريقة الاستكشاف الجراحي للوصول للتشخيص النهائي للإصابة .

كما تميز الزهراوي بوصف الخطوات العملية لجراحة الجمجمة وما يجب على الجراح تحضيره من أدوات خاصة لكل نوع من الإصابات فقال : ((فإن كان كسر العظم قد بلغ إلى الغشاء المغشي على الدماغ وكان مع هشم ورض فينبغي أن تقطع الجزء المتهشم المرضوض على ما أنا واصفه لك وهو أن تحلق رأس العليل المجروح ... فإن عرض لك عند الكشف على العظم نزف دم أو ورم حار فقابل ذلك بما ينبغي وهو أن تحشو الموضع بخرق مغموسة في شراب ودهن الورد ، وفق الجرح حتى يسكن الورم وتأمن من النزف ثم تأخذ في تقويم العظم وذلك يكون على أحد وجهين من العمل فأما

الوجه الواحد فهو أن تقطع العظم بمقطع لطيف ضيق الشفرة وهذه صورته فإن كان العظم قويا صلبا فينبغي أن تثقب حوله قبل استعمالك القاطع بالمثاقب التي سموها غير غائصة))[٢٣]. إن هذا الوصف يشبه شبها كبيرا العملية التي تسمى اليوم بعملية التربنة أو إحداث ثقب في عظام الرأس لرفع العظم المكسور .

٢ - يتكلم الزهراوي على علاج التهاب العظم المزمن (Chranic osteomeyelitis) بشكل منطقي ويستطرد بعد ذلك فيبين الآلات التي يستعملها في إزالة العظام المريضة . ((ومما ذكره هنا يتبين أنه هو أول من أرسى قواعد علاج التهاب العظم والنقي المزمن وذلك بالتداخل الجراحي عن طريق استئصال الشظايا العظمية الميتة والمصابة بالإنتان ، ولا تزال هذه القاعدة هي المتبعة حتى الآن في علاج التهاب العظم والنقي المزمن وخاصة الذي يحدث بعد الإصابة بالكسور المفتوحة))[٢٤] .

يقول ((فإذا مضى للجرح أيام كثيرة ولم يلتحم ولا انقطع القيح منه فاعلم أن هناك شظايا من العظم صغار فينبغي أن تفتش الجرح بالمسبار ، فما كان من تلك الشظايا مبترئة فانتزعها وأخرجها ، وما

---

[٢٣] الدكتور عبد القادر عبد الجبار : جراحة الجمجمة والدماغ عند الأطباء العرب ، البحث .

[٢٤] كعدان (مصدر سابق) ص ١٧٣ .

كان منها غير مبترئة وكانت تنخس العضو وتحدث الوجع فـرم فـي قطعها وانتزاعها بكل وجه يمكنك ذلك . . .))[٢٥] .

٣ - وفي الفصل السابع والثمـانين يـتكلم علـى بتـر الأطـراف Amputation ونشر العظام فيقول : ((وقد تعفن الأطراف إمـا من سبب من خارج وإما من سبب من داخل ، رأيت الفساد يسعى في العضو لا يردعه شيء ، فينبغي أن تقطع ذلك العضو إلى حيث بلغ الفـساد لينجـو العليـل بـذلك مـن المـوت .علامـة مـن ظهر له ذلك أن يسود ذلك العضو حتى يظن أن النـار أحرقتـه . وكذلك إن كان سبب الفساد عن لسع بعض الهوام كعقرب البحر أو الأفعى أو الريتيلا (نوع من العناكب) أو نحو ذلك .

فإن كان الفساد أو اللسعة في طرف الإصبع فاقطع الإصبع ولا تهمل الفساد حتى يسعى ويأخذ في زندي الذراع ، وكذلك إن أخذ في الذراع فاقطع الذراع عند المرفق في المفصل نفسه ، فإن جاز الفساد ورأيته أخذ إلى نحو المنكب فلا تقطع المنكب البتة ، فإن فـي ذلـك موت العليل وكذلك تفعل بالرجل ، إذا أخذ الفساد الإصبع فاقطع عنـد أحد السلاميات وإن أخذ مشط الرجل فاقطع الرجل بأسرها فإن صعد

---

[٢٥] الزهراوي ، أبو القاسم خلف إبن العباس : التصريف لمن عجز عن التأليف ص ١٧٣
Spink, M.S.and Lewis, G.L. Albucasis on Surgery and Instrumentsk the welcome institute of the History of Medicine, London 1973 .

إلى الركبة فاقطع الساق عند مفصل الركبة ، وإن كان الفساد قد بلغ فوق الركبة فليس فيه إلاّ حيلة إسلام العليل إلى الموت))[٢٦] من هذا الوصف نجد أن الزهراوي يصف الغنغرينا وصفا جيدا وينصح بإجراء عملية البتر . وهو يجري العملية حتى مفصل المرفق في الذراع ومفصل الركبة في الساق ، وفيما يأتي يصف طريقة قطع العضو ونشره[٢٧] :

((تشد رباطا في أسفل الموضع الذي تريد قطعه وشد رباطا آخر فوق الموضع ويمد خادم الرباط الواحد إلى أسفل ويمد خادم آخر الرباط الأعلى إلى فوق وتجرد أنت اللحم بين الرباطين بمبضع عريض حتى ينكشف اللحم كله ، ثم يقطع أو ينشر ، فإن حدث نزف دم في خلال عملك فأكو الموضع بسرعة))[٢٨] .

٤ - ونجد له وصفا رائعا لمختلف أنواع الأربطة والجبائر والعمليات التي استعملها في الكسور الخفيفة منها والكبيرة مثل كسور الجمجمة والكتف والذراع والأصابع... الخ ، واستعماله عجينة من غبار الرحى المعجون ببياض البيض[٢٩]يجعله أول مستعمل للجبس في جبر العظام في التاريخ .

---

[٢٦] المصدر نفسه ص ٥٧٩ .

[٢٧] الدكتور محمد كامل حسين : الموجز في الطب والصيدلة ، ص ١٤٠ .

[٢٨] الزهراوي : التصريف ص ٥٨١ .

[٢٩] الدكتور محمد كامل حسين : الموجز في الطب والصيدلة ص ١٤٥ .

ومن ملاحظاته المهمة في كيفية المحافظة على الأنسجة الرخوة الملامسة لحافة الجبائر نصيحته بوضع شيء من الصوف أو اللفات في حافة الجبائر .

٥ - ومن ملاحظاته المهمة أيضا ذكره إمكانية حدوث الشلل أو ضعف الأطراف نتيجة كسر الفقرات . وقبل بوت (Pott) بـ ٧٠٠ سنة اهتم الجراح العربي الزهراوي بالتهاب المفاصل وبتدرن فقرات الظهر[٣٠] .

٦ - وتتجلى براعة جراحنا العربي في مجال الجراحة الصدرية ، حيث تميز هنا بالجرأة العجيبة التي سبق فيها من قبله وتفرد بها منتقدا في هذا المجال آراء كل من أبقراط وجالينوس ، والرازي باستخدامهم المحاجم أو الأغذية التي تسبب انتفاخ بطن العليل من أجل رد كسور الأضلاع المنخمصة قائلا ((نحن نكره هذا لئلا يكون توكيدا لحدوث الورم الحار))[٣١] .

وفي هذا دحض لمن قال إن الأطباء العرب لم يأتوا بالجديد بل رددوا آراء أبقراط وجالينوس في هذا الميدان ، وما هذا إلا أحد الأمثلة الكثيرة التي تظهر إبداع الأطباء العرب وانتقادهم بعض آراء من سبقهم .

---

[٣٠] هونكة ، سيغريد : شمس العرب تسطع على الغرب ، ص ٢٧٧ .

[٣١] الزهراوي : التصريف ص ٧٣٣ .

٧ – وفي جبر كسر الذراع ينبه الزهراوي إلى أمرين اثنين لا تزال لهما أهميتهما في علاج كسر عظمي الساعد ، الأمر الأول تجنب إفراط الشد على الساعد وهذا كثيرا ما يقع فيه من يسمون بمجبري الكسور العرب في بلادنا حاليا ، والأمر الثاني ضرورة تعليق اليد إلى العنق وذلك حتى يخف التورم . يقول الزهراوي ((وانظر فإن كان الغذاء يمتنع أن يصل إلى العضو لإفراط الشد فينبغي أن ترخيه قليلا وتتركه أياما حتى يجري إليه الغذاء ثم تشده ، فإن لم يعرض للعليل شئ مما ذكرنا فلا ينبغي أن يحل إلا بعد عشرين يوما أو نحوها ، ثم علق يد العليل إلى عنقه وليكن ذراعه معتدلا ويتحفظ جهده من الحركات المضطربة ويجعل نومه على ظهره))[٣٢] .

٨- وللزهراوي في الخلوع كلام جدير بالذكر[٣٣] ، فبعد أن يصف أنواع خلوع الكتف يشير إلى حالة خلع الكتف الناكس أو المتكرر وقد يكون هو أول من وصف هذه الحالة بقوله :

((وأكثر ما ينفك ويخرج إلى أسفل نحو الأبط ولا سيما في الذين لحومهم قليلة لأنه يخرج فيهم سريعا))[٣٤].

---

[٣٢] المصدر نفسه ص ٧٥١.

[٣٣] أوجزنا هذه الفقرة عن ، كعدان (مصدر سابق) ص ١٧٧-١٧٩ .

[٣٤] الزهراوي : التصريف ص ٧٩٥ .

ثم يتعرض لتحديد علامات الخلع ، وبعد ذلك يتعرض بالحديث عن المعالجة وهو يطرح عدة طرق للعلاج ، الطريقة الأولى هي ما تعرف بطريقة تمثال الحرية Liberty status method . وقد يكون هو أول من ذكرها ، حيث يقول ((ورده أن يرفع خادم يده (أي المريض) غلى فوق ثم تجعل أنت إبهامي يديك تحت إبطه وترفع المفصل بقوة إلى فوق إلى موضعه والخادم يرفع يده ويمدها إلى فوق ثم يحط بها إلى أسفل فإنه يرجع بسرعة))[٣٥] .

وبعد ذكر علامات خلع المرفق ينبه الزهراوي إلى قاعدة ما زالت تعتبر هامة جدا في علاج خلع المرفق وهي أن يجرى الرد مباشرة وبلا تأخيرولا سيما في حالة الخلع الخلفي . ثم يتعرض لطريقة رد الخلع الخلفي وهذه الطريقة لا زالت هي المستخدمة في يومنا هذا . ثم يشرح طريقة رد الخلع الأمامي . وفي حالة تعسر الرد ينصح باستعمال الشد الشديد يحاول في أثناء الرد . وبعد حدوث الرد توضع الضمادات وتعلق الذراع في عنق العليل .

خامسا – لقد أتى عبد اللطيف البغدادي (٥٧٧ – ٦٢٩ / ١١٨١ – ١٢٣١ م) بشاهد حي على ازدهار جراحة الجمجمة وممارستها في أيامه عكس ما قاله الكثيرون إن العرب

---

[٣٥] المصدر نفس ص ٧٩٥ .

نقلوا الجراحة ولم يمارسوها فقد ذكر حال عدد من المرضى عولجوا من كسور الجمجمة وتحسنوا فقال :

((ولقد رأيت من أخذ من رأسه قطع من العظام وسلم رأيت إنسانا قد أخذ من قحفه قطعة وصار في رأسه حومة إذا صاح أو استرق النفس على الموضع من القحف كان كالرمانة العظيمة)) .

صيغ العموم والخصوص في اللغة العربية
(بالنسبة للتذكير والتأنيث)

الدكتور شاكر احمد العامري

الملخص :

اللغة العربية تنظر إلى الموجودات نظرة عامة ، أولا ، ثم تعيد النظر إليها كرّة أخرى فتقسمها إلى مذكّر ومؤنّث . وقد خلت صيغة العموم من علامات ، وكذا صيغة المذكّر ، واختصّت بذلك الأمر صيغة المؤنّث .

إذن ، فاللغة العربية تستخدم ثلاث صيغ في تعاملها مع الأشياء ؛ صيغة عامة تشمل المذكّر والمؤنّث تُستخدم عند اجتماعهما خالية مما يميّزها ، لأنّ العربية دقيقة في هذا المجال ، وصيغة خاصة بالمؤنّث (مع علامات التأنيث) ، وصيغة خاصة بالمذكّر (بدون علامات) ، أي أنّ المذكّر يستخدم صيغة العموم الخالية مما يميّزها ، ولابد من وجود قرائن معنوية أو لفظية أو سياقية تنصّ أو تشهد للمذكّر بذكوريته ، وإن انعدمت فالمعنيّ هو صيغة العموم .

وهناك استعمالان آخران لصيغة العموم ، الأول هو الكلمات المبهمة التي لا تتضح جنسيتها إلاّ بعد الاستعمال ، نحو كلمة شيء أو العدد ، والثاني هو الكلمات التي ليس لها جنس معيّن ، ولو كان افتراضيا ، كالملائكة والجنّ وإبليس والشيطان وجبريل وميكائيل وعزرائيل والباري تبارك وتعالى ، أو ما نستطيع تسميته (ما فوق الجنسية) .

لذا يمكننا القول : إنّ صيغة العموم في العربية نستخدمها لثلاثة أمور: الأول هو اشتراك المذكّر والمؤنّث ، والثاني هو عدم وضوح أيّ منهما ، والثالث هو كون الكلمة خارج حدود الجنس ولا تنطبق عليها قوانينه .

مفاتيح النصّ : التذكير ، التأنيث ، صيغة العموم ، الجنسية ، المشترك ، المبهم .

المقدّمـــة:

أكثر لغات العالم ، كاللغة الفارسية علي سبيل المثال ، تستفيد من صيغة عامة بالنسبة للتذكير والتأنيث ، فهي لا تفرّق بين المذكّر والمؤنّث إلاّ في الدلالـــة . أمـــا الصيغ اللغوية كالضمائر والأسمـــاء والأفعال والصفات وغيرها ، فهي مشتركة بينهما . فلا فرق بين الأسماء الموصولة أو أسماء الإشارة أو الضمائر وما إلى ذلك ، لا فرق بين ما يُستخدم منها للمذكّر وما يُستخدم منها للمؤنّث . فجملة : (اين همان معلم است كه به خانه اش رفته بود) من الممكن أن تعني : (هذا هو المعلم الذي كان قد ذهب إلى بيته) أو تعني : (هذه هي المعلمة التي كانت قد ذهبت إلى بيتها) .

لكنّ هناك من اللغات لغات تفرّق بين المذكّر والمؤنّث في عدد من الصيغ اللغوية المحدودة ، وليس في جميعها . فالإنجليزية ، مثلا ، تستخدم ضمائر للمذكّر وأخرى للمؤنّث ، أو توجد فيها بعض كلمات تدل على المذكّر وأخرى تدل على المؤنّث وتقف عند هذا المستوى ، فلا فرق بين المذكّر والمؤنّث في الأسماء الموصولة أو أسماء الإشارة أو الأفعال أو

الصفات ، وغير ذلك . فمثالنا أعلاه يكون ، عند ترجمته إلى الإنجليزية ، هكذا :

This is the same teacher who had gone home.

فلا يُعلَم جنس المعلم ؛ أهو مذكّر أم مؤنّث ، أو أمعلم أم هي معلمة إلاّ إذا قلنا :

This is the same teacher who had gone his (or her) home.

حيث إنّ كلمة his هي ضمير تملّك للمذكّر وكلمة her هي ضمير تملّك للمؤنّث .

وجاء في موقع "الإسلام سؤال وجواب" (http://www.islamqa.com) ليوم الإثنين ١٣ جمـــادى الآخـــرة ١٤٢٩ - ١٦ حزيران ٢٠٠٨، جوابا عن سؤال طرحته إحدى القارئات ، ما يلي :

«من ضرورات الخطاب والتفاهم أن يُعبّر عن كلّ أحد بما يخصه ويميّز جنسه ، وهذه ظاهرة قديمة في اللغات البشرية . "غير أنّ هناك أشياء لا صلة لها بالجنس الحقيقي ، مثل الجمادات ، كالحجر والجبل ، والمعاني ، كالعدل والكرم ، وغير ذلك . فمثل هذه الأمور لا يلحظ فيها تذكير ولا تأنيث ، بالمدلول الحقيقي الطبيعي لهاتين الكلمتين . وكان ذلك- فيما يبدو- هو السبب الذي جعل بعض اللغات تقسم الأسماء الموجودة فيها إلى ثلاثة أقسام : مذكّر ومؤنّث ، وقسم ثالث هو ما يسمى في اللغات الهندو أوربية " بالمحايد" NEUTER وهو في الأصل ما ليس مذكّرا ولا مؤنّثا .

ولكنّ اللغات البشرية لم تسر كلها هذا الشوط على نمط واحد ، فقد وزّعت اللغات العروبية (الجزرية) ، مثلا ، أسماء القسم الثالث ، وهو

المحايد ، على القسمين الآخرين ، وصارت الأسمـــاء فيها إمّـــا مذكّرة وإمّا مؤنّثة ...

ومثل ذلك حدث في اللغة الفرنسية ؛ إذ ليس في أسمائها إلا التذكير والتأنيث ، وكانت الإنجليزية في ذلك أوغل من الفرنسية ... " انظر : مقدمة د . رمضان عبد التواب ـــ رحمه الله ـــ لكتاب " البلغة في المذكّر والمؤنّث " ، لابن الأنباري (٣٧-٣٩) .

وإذا عرفنا أنّ تقسيم الأشياء إلى مذكّر ومؤنّث ـــ حتى ما لا يوصف في واقع الأمر بذلك ـــ هو من خصائص معظم اللغات ، ولاسيما الحية منها الآن ؛ وليس من خصائص اللغة العربية وحدها ، فلتعلمي أن الشيء ـــ أيّ شيء ـــ إذا دار بين أن يوصف في اللغة بالمذكّر أو المؤنّث ، ولم يكن مما يوصف في حقيقة أمره بذلك ، فإنّ اللغة ترجّح الإخبار عنه بوصفه مذكّرا ؛ لأنه أخف عندهم، ولأنه الأصل ، فلا يحتاج إلى علامة ، ويتفرع عنه المؤنّث ، بالعلامة الدالة عليه .

يقول إمام النحو سيبويه ، رحمه الله : "واعلم أنّ المذكّر أخفّ عليهم من المؤنّث لأن المذكّر أول ، وهو أشد تمكنا ، وإنما يخرج التأنيث من التذكير ؛ ألا ترى أنّ "الشيء" يقع على كل ما أُخبر عنه ، من قَبْل أن يُعلم أذكر هو أو أنثى ، والشيء ذكر ؟!". (كتاب سيبويه ، ١/ ٢٢ ، وانظر ٣/٢٤١ منه)» . انتهى

كانت تلك مقدمة ، أعتقد أنّها كافية ، عن التذكير والتأنيث وذلك تمهيدا للدخول إلى موضوع المقالة الأصلي ولنلمس تميّز اللغة العربية في هذا المجال ، بل كمالها ، وقدرتها على التعبير عن أدقّ الأمور بشكل كامل

ودقيق في الوقت نفسه ، أو بتعبير آخر لنعرف مرونتها في التعبير عمّا يُطلب منها بدقّة ويسر وفي أحسن نظام ، لندرك عظمة القرآن الكريم ولنصل إلى حكمة الباري تعالى في اختيار تلك اللغة ليُنزل بها معجزته الخالدة .

التذكير والتأنيث في اللغة العربية :

يقسّم عباس حسن الاسم المعرب إلى نوعين : مذكّر ، مثل : حاتم ، قيس ، نهر ، قمر ، كتاب ، ... ولا يحتاج إلى علامة لفظية تُزاد على صيغته ، لتدلّ على تذكيرها وتذكير صاحبها ؛ لأنّ الذي يدلّ على تذكيرهما هو الشهرة وشيوع الاستعمال. و**مؤنّث** ، مثل: سنيّة، عزيزة ، ليلى ، لمياء ، أرض ، عُقاب ، عقرب ، ... ويحتاج إلى علامة لفظية ظاهرة أو مقدّرة (ملحوظة) تُزاد على صيغته ، لتدلّ على تأنيثها وتأنيث صاحبها ، وهي تاء التأنيث المتحركة ، أو ألف التأنيث بنوعيها : المقصورة والممدودة ، أو تكون ملحوظة وذلك بأسلوبين : الأول : ظهورها عند التصغير ، مثل أرض- أُرَيْضَة ، أُذُن- أُذَيْنَة ، عَيْن- عُيَيْنَة ... الثاني : عود الضمير عليها ، أو نعتها ، أو الإشارة إليها ، نحو: هذه عقربٌ سامّةٌ قتلتُها ، أو هذه عُقابٌ جارحةٌ تزقُّ أفراخَها .

والمؤنّث نوعان رئيسان : حقيقي ومجازي ، وكلٌّ منهما يُقسم إلى لفظي ومعنوي . **فالحقيقي اللفظي** هو ما كان له مذكّر من جنسه ولحقته إحدى علامات التأنيث ، نحو: فاطمة ، ليلى ، زهراء ، **والحقيقي المعنوي** هو ما كان له مذكّر من جنسه وخلا من علامات التأنيث ، نحو: زينب ،

سعاد ، إلهام . **والمجازي اللفظي** هو ما لم يكن له مذكّر من جنسه ولحقته إحدى علامات التأنيث، نحو : رسالة، دنيا ، سماء ، **والمجازي المعنوي** هو ما لم يكن له مذكّر من جنسه وخلا من علامات التأنـيث ، نحو: أرض ، يد ، كتف ، عقرب ، عُقاب ، ... وهناك نوع ثالث هو **المؤنّث اللفظي** الذي هو مذكّر في مدلوله ، نحو: حمزة ، أُسامة، يحيى ، زكرياء ، ....

إنّ التاء المتحركة هي أشهر علامات التأنيث وتختصّ بالدخول على أكثر الأسماء المشتقة ؛ لأنّ بعض المشتقات لا تدخلها التاء إلاّ قليلا أو لا تدخلها إطلاقا ، وأشهر الأوزان التي لا تدخلها التاء أربعة :

١. فَعول بمعنى : فاعل ، نحو : صبور ، نفور ، حقود ... بمعنى صابر ، نافر ، حاقد ، فيقال : رجل صبور أو امرأة صبور ، نفور، حقود . فإن كان فَعول بمعنى : مفعول جاز دخول التاء وعدمه ، نحو: سيارة ركوب أو ركوبة ، بقرة حلوب أو حلوبة ، ... بمعنى مركوب فيها ومحلوبة بشرط أن يُذكر الموصوف معها ، أي مع الصفة .
٢. مِفعال ، نحو: مِفتاح ، بمعنى كثيرة الفتح وكثيره ، ومِعلام ، بمعنى كثيرة العلم وكثيره ، ومِفراح ، بمعنى كثيرة الفرح وكثيره .
٣. مِفعيل ، نحو: مِنطيق ، للبليغ والبليغة ، ومِعطير ، لكثيرة العطر وكثيره ، وشذّ مِسكين ومِسكينة .
٤. مِفعَل ، كمِغشَم ، للمذكّر والمؤنّث بمعنى جريء وشجاع لا ينثني عن إدراك ما يريده .

أمّا المشتقات التي تدخلها التاء قليلا فهي نوعان :

الأول : المشتقات الدالة على معنى خاصّ بالأنثى يناسب طبيعتها ، كالحمل والولادة والرضاعة والحيض ، فيقال : امرأة حامل وحاملة ، ووالد ووالدة ، ومرضع ومرضعة ، وحائض وحائضة ، والحذف أحسن .

والثاني : ما كان على وزن : فعيل ، بمعنى : مفعول بشرط أن يؤمن اللبس ، كقتيل وجريح . فيمكن أن يقال : رأيتُ فتاةً قتيلاً في منزلها ، ولكن إذا قلنا : كان في المنزل قتيل ، فإنّ الذهن ينصرف إلى المذكّر لا إلى المؤنّث لعدم وضوح الموصوف ، فإذا أردنا المؤنّث قلنا : كان في المنزل قتيلة . قال تعالى : «وما يُدريكَ لعلَّ الساعةَ قريبٌ» (الشورى : ١٧) و «إنّ رحمةَ اللهِ قريبٌ من المحسنين» (الأعراف: ٥٧) . (انظر: حسن ، بدون تاريخ ، ٤: ٥٨٥- ٥٩٥ بتصرّف)

والملاحظ على اللغات التي تفتقر إلى صيغة الخصوص (المذكّر والمؤنّث) أو تستخدمها بشكل محدود مكتفية بصيغة العموم والصيغ المحايدة أو المشتركة أنّها تفتقر إلى صيغة المثنّى كذلك .

وقد احتار دارسو العربية عندما وجدوا الكلمات فيها على قسمين لا ثالث لهما ، فهي إمّا مذكّرة وإمّا مؤنّثة ، في حين أنهم يرون كلمات لفظها مذكّر ولكنّها تخرج عن حدود ذينك القسمين في مدلولها ، فهي إمّا أن تدلّ عليهما معا أو يكون ما تدلّ عليه مبهما أو لا تصدق عليه الجنسية ، وإن كانت مفترضة ، فتصوّروا أنّ العربية تقوم بتغليب المذكّر على المؤنّث في الصيغ اللغوية .

اللغة العربية والتذكير والتأنيث:

ولتفسير سلوك اللغة العربية في النظر إلى ظاهرة الجنس أو "التذكير والتأنيث" نقول : إنّ اللغة العربية تحاول النظر إلى الموجودات بنظرة عامـــة ، أولاً ، ثم تعيد النظر إليها كرّةً أخرى فتقسمها إلى مذكّر ومؤنّث . وكان لا بدّ من اختيار أو اختراع علامات أو صيغ تميّز المذكر أو المؤنّث أو كليهما .

إنّ اختراع علامات أو صيغ تميّز المذكّر والمؤنّث تلحقهما كليهما ليست منطقية ، إذ انّ تعليم أحدهما أو توسيمها يغني عن توسيم الآخر . بقي لدينا خيار واحد ، وهو اختيار الذي يتميّز وإبقاء الذي لم يتميّز ، يستخدم صيغة العموم التي تعني كلا القسمين ؛ المذكّر والمؤنّـــث بلا قرائن خاصة . وهكذا تمّ تمييز المؤنّث في العربية ، كمـــا في غيرها كالفرنسية .

وخلاصة القول أنّ اللغة العربية تستخدم ثلاث صيغ في تعاملها مع الأشياء ؛ **صيغة عامة** تشمل المذكّر والمؤنّث تُستخدم عند اجتماعهما خالية مما يميّزها ، لأنّ العربية دقيقة في هذا المجال ، **وصيغة خاصة بالمؤنّث** (مع علامات التأنيت) ، **وصيغة خاصة بالمذكّر** (بدون علامات) ، أي أنّ المذكّر يستخدم صيغة العموم الخالية مما يميّزها . وهذا لا يعني أنّ المذكّر الذي تخلّى عن علامات التذكير واكتفى بصيغة العموم يستغني عن قرائن لفظية أو معنوية تميّزه عن تلك الصيغة . فكما أنّ بعض صيغ التأنيث الخالية من العلامات اللفظية لابّد من احتوائها على قرائن معنوية أو لفظية أو سياقية ، إن صحّ التعبير ، تنصّ أو تفيد أو تشهد بأنثويتها ،

كذلك لابد من وجود قرائن معنوية أو لفظية أو سياقية تنصّ أو تشهد للمذكّر بذكوريته ، وإن انعدمت فالمعنيّ هو صيغة العموم .

يبدو أنّ هذا القول يحتاج إلى شواهد . وأقول إنّ شواهد هذه المسألة كثيرة وواضحة لكلّ من استخدم الأساليب العربية في كلامه . فأكثر صيغ القرآن الكريم التي يخاطب بـها المسلمين والمؤمنين هي صيغ عامّة : (يا أيها الذين آمنوا ، اذكروا الله ، توبوا إلى اللهِ جميعا ، فرّوا إلى الله ، جاهدوا ، أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ، اركعوا ، اسجدوا ، ...) فهل يعني المسلمين دون المسلمات أو المؤمنين دون المؤمنات ؟ بل إنّ قولنا : يحجّ المسلمون إلى مكة ، هل نعني به الرجال دون النساء ؟ أو عندما نقول : الإيرانيون مسلمون في غالبيّتهم العظمى ، هل يشمل ذلك رجالهم دون نسائهم ؟

إنّ القرآن الكريم عندما يريد التخصيص فإنّه يستخدم صيغة للمذكّر وأخرى للمؤنّث . فقد وردت كلمات من قبيل : (المؤمنين والمؤمنات ، والصادقين والصادقـات ، والقانتين والقانتات ، والحافظين لفروجهـم والحافظات...) . قال تعالى مخاطبا المؤمنات : "وقَرْنَ في بيوتِكُنَّ ولا تَبرَّجْنَ تبرُّجَ الجاهليّةِ" (الأحزاب: ٣٣) ، و "... وقُلْنَ قولا معروفا" (الأحزاب: ٣٢) وقال – عزّ اسمه – مخاطبا المؤمنين : " فالآنَ باشروهنَّ وابتغوا ما كتبَ اللهُ لكم" (البقرة: ١٨٧) ، و " لا جناحَ عليكم إنْ طلّقتُمُ النساءَ مالم تمسّوهنَّ..." (البقرة: ٢٣٦) .

من هنا نرى خطأ من اعتقد بأن اللغة العربية لغة تتحيّز للمذكّر ولا مكان للمؤنّث فيها إلاّ على نطاق ضيّق ، لأنّه خلط صيغة العموم بصيغة

المذكّر ، أو بالأحرى ، جمع صيغة العموم إلى صيغة المذكّر فوجد المذكّر أكثر استعمالا من المؤنّث ووجد أنّ العربية تقوم باستخدام صيغة المذكّر إن اجتمع مذكّر ومؤنّث فآمن بأنّ ذلك تغليب للمذكّر ، كما يرى النحاة ، والتغليب هو انحياز دون مسوّغ .

إنّ المتمعّن في الكلام العربي يجد كلمات عامّة - إن صحّ التعبير- تشمل المذكّر والمؤنّث على السواء ، من قبيل : الإنسان ، المرء ، الكائن (الموجـود) البشري ، الحيوان الناطـق والحيوان الضاحك (في المنطق) خليفة الله ، العبد (في بعض الخطابات) ، وما إلى ذلك ، كلّ تلك الكلمات لم تأتِ بصيغة المذكّر ، بل جاءت بصيغة العموم لتشمل المذكّر والمؤنّث على السواء ، وكذا كلّ ما يتعلّق بها من الصيغ اللغوية كالأفعـال والصفات وأسمـاء الإشـارة والأسماء الموصولة وما شابهها ، وإن أُريد منها صيغة خاصّة أُضيفت إليها قرائن معيّنة .

كما أنّنا نلاحظ صيغا عامة في مجالات لغوية أخرى كما في الضمائر ، حيث يكون ضميرا المتكلم ؛ المفرد والجمع ، وضمائر المثنى للمخاطب والغائب ، متصلة كانت أم منفصلة ، تكون تلك الضمائر ضمائر عامة لا مكان للجنس فيها أو ، بتعبير آخر ، يستوي فيها المذكر والمؤنث . فيُقال ، مثلاً : أنا رجلٌ جئتُ من السوق مع أبي ، أنا امرأةٌ جئتُ من السوق مع أبي ، نحن رجلٌ وامرأةٌ جئنا من السوق مع أبينا ، نحن رجال جئنا من السوق مع أبينا ، نحن نساءٌ جئنا من السوق مع أبينا ، أنتما رجلانِ جئتُما من السوق مع أبيكما ، أنتما امرأتانِ جئتُما من السوق

مع أبيكما ، هما رجلانِ جاءا من السوق مع أبيهما ، هما امرأتانِ جاءتا من السوق مع أبيهما .

وهناك مفردات تستخدم للجمع بين المذكر والمؤنث كما في نحو : القمران ، للشمس والقمر ، وليس المقصود هنا مثنى القمر الذي نشاهده ليلا ، بل المقصود هو المعنى اللغوي لكلمة القمر ، أي الجرم السماوي ، فقد يُقال للشمس والقمر: الفرقدان أو الكوكبان .

كيف تعاملت العربية مع الكلمات المبهمة ؟

عندما نقول : (هذا الشيء موجود) هل يعني قولنا أنّ الشيء المذكور هو مذكّر ؟ الجملة ، في الواقع ، مبهمة ، فقد يكون الشيء المذكور (حقيبة) أو (مجلة) فيكون مؤنّثا أو (كتابا) فيكون مذكّرا . وبعد معرفة كنه ذلك الشيء ، تتحدّد الصيغ بالضبط ، إذ ليس من المنطقيّ أن نحكم بكونه مذكّرا أو مؤنّثا من دون معرفة كنهه . ولكنّنا ، في الجملة السالفة ، استخدمنا اسم الإشارة (هذا) وكلمة (موجود) وكلاهما يشيران إلى المذكّر ، وفي ذلك تغليب أو تحيّز للمذكّر .

في هذا الكلام مغالطة ، فليست الصيغة المستخدمة في كلمتي (هذا) و(موجود) هي صيغة المذكّر ، بل هي صيغة عامة تشمل المذكّر والمؤنّث على السواء ، وهي **صيغة العموم** ، أي أنّ صيغة المذكّر في العربية قد استفادت من صيغة العموم في هذا المجال كذلك . فإذا عرفنا ذلك عرفنا أن أكثر الصيغ المستخدمة هي صيغ عامة لا تعني المذكّر وحده ، بل تشمل المذكّر والمؤنّث جميعا أو هما يستويان فيها فلا يتمّ ترجيح أحدهما على الآخر ، كما في المثال السابق ، وكلامنا اليومي

مشحون بالشواهد والأمثلة. تأمّل في هذه الجملة : (ما تفكّر به هو الصحيح) ، فهل ما أفكّر به رأيّ أو فكرة ، أعني هل هو مذكّر حتّى استخدم له صفة مذكّرة (الصحيح) ، إذ قد يكون فكرة ، وإذ ذاك يجب أن تكون الصفة مؤنّثة (الصحيحة) ؟

يؤيّد هذا الكلام ما جاء في كتاب سيبويه ، قال : " واعلم أنّ المذكّر أخفّ عليهم من المؤنّث لأنّ المذكّر أوّل وهو أشدّ تمكّنا وإنّما يخرج التأنيث من التذكير ، ألا ترى أنّ الشيء يقع على كلّ ما أخبر عنه من قبل أن يُعلم أذكر هو أو أُنثى والشيء مذكّر ؟". (سيبويه، ١٩٩٠م ، ١: ١٤) ولكنّ النتيجة التي يخرج بها سيبويه ليست صحيحة باعتقادي لأنّه يُرجع المذكّر والمؤنّث إلى أصل واحد ، وهو المذكّر ، وهو تناقض واضح لأنّه يقضي بأن يتضمّن المذكّر كلا من المذكّر والمؤنّث في آنٍ واحد وهو غير منطقيّ والمفروض أن يفرّع المذكّر والمؤنّث من صيغة عامّة وليس من المذكّر الذي هو جزءٌ لا كلٌّ والجزء لا يتفرّع من الجزء ، بل من الكلّ ، وكلّ جزء يعود إلى كلّ يتفرّع منه .

وتُعَدُّ الأعدادِ ، وهي قيم مبهمة ، من أوضح الأمثلة على الصيغ الثلاث المذكورة ؛ صيغة العموم وصيغتي المذكّر والمؤنّث ، إذ يبقى العدد في صيغته العامة حتي يتحدّد معدوده ، أو تمييزه ، الذي يعيّن هويته . فإذا طلبت من طفل عربيّ أن يعدّ من الواحد إلى العشرة، مثلا ، فهو يعدّ هكذا : (واحد ، اثنان، ثلاثة ، أربعة ، خمسة ، ستة ، سبعة ، ثمانية ، تسعة ، عشرة) . ولا يتحدّد ذلك بالأعداد الأصلية فقط ، بل يشمل الأعداد الترتيبية التي نستخدمها في الترقيم كذلك ، فنحن نقول : (أولا ، ثانيا ،

ثالثا ،...) ولا نقول : (أولى ، ثانية ، ثالثة ،...) . وكلّ ذلك دليل على **صيغة العموم** لا على كون العدد مذكّرا . والمفارقة هنا هي أننّا نستخدم أعدادا مؤنّثة للمعدود المذكّر وأعدادا مذكّرة للمعدود المؤنّث، وذلك للأعداد الأصلية (٣ –٩) ماعدا (١و ٢) في أنواعها الثلاثة ؛ المفرد والمركّب والمعطوف ، يُضاف إليها العدد (١٠) . نقول : (عندي ثلاثة أقلامٍ وثلاث مجلاّتٍ ، وعشرة أقلامٍ وعشر مجلاّتٍ ، وثلاثةَ عشرَ قلما وثلاثَ عشرةَ مجلّة ؛ وثلاثة وعشرون قلما وثلاث وعشرون مجلّة) ، وهكذا ، وهناك ألفاظ ثابتة لا تتغيّر صيغتها بالنسبة لجنس المعدود ، كألفاظ العقود ومئة وألف ومليون وبليون ومليار وتريليون وما إلى ذلك .

وهكذا نرى إضافة استعمال آخر إلى استعمالات صيغة العموم ، وهو **الكلمات المبهمة** التي لم تتضح جنسيتها ، ولو كانت افتراضية . لذا يمكننا القول : إنّ صيغة العموم في العربية تُستخدم في حاليتين : الأولى عند اجتماع مذكّر ومؤنّث والثانية عند الإشارة إلى مبهم .

ما فوق الجنسية :

هناك ، في اللغة العربية ، كلمات أو مفردات تشير إلى موجودات لا يمكن أن تصدق عليها الجنسية بأيّ حال من الأحوال . فالملائكة والجنّ وإبليس والشيطان وجبريل وميكائيل وعزرائيل والباري تبارك وتعالى ... لا يمكن أن تصدق عليها الجنسية أبدا لأنها خارج نطاقها ، وهي موجودات حية عاقلة مفكّرة وليست جمادات أو مفاهيم لتصدق عليها الجنسية المفترضة ، فكيف نشير إليها ؟ الحلّ هو **صيغة العموم** !

ولا يصحّ تفسير سلوك العربية في هذا المجال باعتبار اللفظ وليس المدلول ، فاعتبرت اللغة تلك الأسماء مذكّرة باعتبار ألفاظها ، لأنّ تلك الأسماء ليست مجرّد ألفاظ ، بل إنّها تشير إلى موجودات فعليّة حيّة عاقلة مفكّرة . كما أنّ تعاملنا مع الكلمات على اعتبار اللفظ يدفعنا إلى فرض الجنسية لها . فالشجر مذكّر لفظا مع أنّ مفرده ، شجرة ، مؤنّث لفظا . لكنّنا لا نتعامل مع الأشياء باعتبار ألفاظها فقط ، ولو كان ذلك مطّردا لخرج المؤنّث المعنوي من التأنيث مع كونه مؤنّثا حقيقيا .

وقد حاول أحد الفضلاء في موقع "الإسلام سؤال وجواب" (http://www.islamqa.com) ليوم الإثنين ١٣ جمادى الآخرة ١٤٢٩هـ - ١٦ حزيران ٢٠٠٨م ، أن يجيب عن سؤال لإحدى السائلات : لماذا يجب أن نشير إلى الباري تعالى بالضمير "هو" ولا يجوز أن نشير إليه تعالى بالضمير "هي" ، فقال :

«... إذا كان الأمر يدور بين قسمين ، أو أمرين ، أحدهما أرجح من الآخر ، ولو بوجه ما ، "وجب ضرورة اختصاص الرب بأشرف الأمرين وأعلاهما ". (الصواعق، ٤: ١٣٠٨)

ولذلك تجد عامة من يؤمن بأنّ له في السماء إلها ، يخبر عنه بذلك الضمير "هو" الذي هو لائق به سبحانه ، وهذا أمر فطري لا يحتاج إلى بحث ونظر أو دليل ، فلا تجد عالما أو جاهلا ، موحدا لله أو مشركا به ، إلاّ ويخبر بذلك عن الله سبحانه ، ولو قد تكلم أحد منهم بضمير المؤنّث ، كما قالت لك تلك المسكينة ، لقاموا عليه جميعا ، وعرفوه بالجهل والضلال المبين .

فكيف إذا انضمّ إلى ذلك خبر الله تعالى عن نفسه ، في كتابه الكريم ، بل في كتبه المنزلة جميعا ، بمثل ذلك الضمير .

قال الله تعالى : (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ) (الأنعام: ٧٣) وقال تعالى: (وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) (الروم: ٢٧) وقال تعالى : (وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ) (الزخرف: ٨٤) والآيات في ذلك أكثر من أن تحصى .

فكيف إذا كان الله تعالى قد عاب على المشركين أنهم يدَعون عبادة الله الواحد القهار ، ويعبدون من دونه إناثا ، وذمّهم على ذلك وبين قبيح عملهم . قال تعالى: (إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا) (النساء: ١١٧) .

يقول الإمام الطبري رحمه الله : " يقول جل ثناؤه : فحسب هؤلاء الذين أشركوا بالله ، وعبدوا ما عبدوا من دونه من الأوثان والأنداد ، حجّة عليهم في ضلالتهم وكفرهم وذهابهم عن قصد السبيل ، أنهم يعبدون إناثا ويدعونها آلهة وأربابا ، والإناث من كل شيء أخسّه ، فهم يقرّون للخسيس من الأشياء بالعبودية ، على علم منهم بخساسته ، ويمتنعون من إخلاص العبودية للذي له ملك كل شيء ، وبيده الخلق والأمر ". (تفسير الطبري ، ط محمود شاكر ، ٩: ٢١١) .

وقال الشيخ ابن سعدي رحمه الله : " أي : ما يدعو هؤلاء المشركون من دون الله إلاّ إناثا ، أي : أوثانا وأصناما مسميات بأسماء الإناث كـ (العُزّى) و (مَناة) ونحوهما . ومن المعلوم أنّ الاسم دال على المسمى ؛ فإذا كانت أسماؤها أسماء مؤنّثة ناقصة ، دل ذلك على نقص المسميات بتلك الأسماء ، وفقدها لصفات الكمال ، كما أخبر الله تعالى في غير موضع من كتابه ، أنها لا تخلق ولا ترزق ولا تدفع عن عابديها ، بل ولا عن نفسها نفعا ولا ضرا ، ولا تنصر أنفسها ممن يريدها بسوء ، وليس لها أسماع ولا أبصار ولا أفئدة ، فكيف يُعبد من هذا وصفه ، ويُترك الإخلاص لمن له الأسماء الحسنى ، والصفات العليا ، والحمد والكمال ، والمجد والجلال ، والعز والجمال ، والرحمة والبر والإحسان ، والانفراد بالخلق والتدبير ، والحكمة العظيمة في الأمر والتقدير ؟!!

هل هذا إلاّ من أقبح القبيح الدال على نقص صاحبه ، وبلوغه من الخسة والدناءة أدنى ما يتصوره متصور ، أو يصفه واصف ؟!! " انتهى . (من تفسير السعدي، ٢٠٣) .

على أننا ننبّه أنّ الله تعالى لا يوصف بشيء من ذلك ، وإنّما ذلك من ضرورات الخطاب في اللغة ، وما يحتاجه الناس في التفاهم ؛ فكل ذكر وأنثى مخلوق ، والله تعالى هو خالق الذكر والأنثى : (وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى) (النجم: ٤٥) . وتعالى الله أن يكون له ندّ أو شبيه ، أو زوجة أو ولد : (بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) . (الأنعام: ١٠١) » . انتهى .

والملاحظ على النصّ ــ المذكور آنفا ــ أمران : الأول : هو النظرة السلبية إلى المؤنّث واعتبار الأنثى أقلّ شأنا من الذكر ، وهي نظرة لا تنطبق مع الواقع ؛ واقع الإسلام وتعاليمه أو واقع اللغة العربية التي تسمّي الذكور بأسماء مؤنّثة لفظا ، نحو حمزة وطلحة وأُسامة ، وتسمّي الإناث بأسماء مذكّرة لفظـــا ، نحو صباحِ وقُطام وحذام وغزال وإلهام وهيام وإيمان ، والثاني : هو اعترافه بأنّ الباري تعالى خارج عن حدود الجنس ولا تنطبق عليه تعالى قوانينه ؛ ولكنه عجز عن أن يجد لذلك تفسيرا أو عن أن يدرجه تحت عنوان ما فليس في العربية إلاّ مذكّر أو مؤنّث ، مكتفيا بالقول بأنّ "ذلك من ضرورات الخطاب في اللغة ، وما يحتاجه الناس في التفاهم" . ولو أنّه فطن إلى صيغة العموم في العربية لوجد الحلّ المناسب في هذا المجال .

وعليه فإنّنا ، هنا ، نرى استخداما آخر لصيغة العموم في العربية ، فهي تُستخدم لثلاثة أمور: **الأول** هو اشتراك المذكّر والمؤنّث ، **والثاني** هو عدم وضوح أيّ منهما ، **والثالث** هو كون الكلمة خارج حدود الجنس ولا تنطبق عليها قوانينه .

قد يخلق هذا الكلام تصوّرا أو انطباعا لدى بعضهم أنّ اللغة العربية تستخدم صيغة محايدة أو مشتركة مضافة الى صيغتي المذكّر والمؤنّث . وليس ذلك التصوّر أو الانطباع صحيحا ، إذ إنّ الصيغ المحايدة أو المشتركة هي صيغ مستقلّة تستفيد منها لغة ما إلى جانب صيغتي المذكّر والمؤنّث ، في حين أن صيغتي العموم والمذكّر في العربية تتحدان في الظاهر فقط، حتى ليبدو الأمر أنّ هناك صيغة واحدة فقط هي صيغة

المذكّر إلى جانب صيغَة المؤنّث ، وكأنّ الإيجاز الذي تتصف به اللغة العربية في أساليبها اللغوية يظهر هنا جليّا في قواعدها كذلك .

الخاتمـــة

إتماما للفائدة ، يمكننا ، في نهاية هذه المقالة ، استخلاص النتائج الآتية ممّا ورد فيها :

١. إنّ ظاهرة التذكير والتأنيث ليست ظاهرة عامّة في لغات العالم ، بل هي نسبية فيها وقد تنعدم في بعضها .

٢. اللغات التي توجد فيها ظاهرة التذكير والتأنيث تختلف في تعاملها معها ، فهناك صيغ للمذكّر وأخرى للمؤنّث وثالثة مشتركة ورابعة محايدة .

٣. التذكير والتأنيث في غير العربية من اللغات لا يعدو أن يكون ظاهرة لغويّة وليس قاعدة نحويّة تتعلّق بالتمييز بين الكلمات ، من ناحية الجنس ، وإن كان مفترضا .

٤. للمذكّر والمؤنّث في اللغة العربية صيغ وقوانين محدّدة وواضحة .

٥. عجز النحو العربي عن تفسير كيفيّة تعامل اللغة العربية مع مسألة اجتماع المذكّر والمؤنّث ، كما عجز كذلك عن تفسير كيفيّة تعاملها مع الكلمات المبهمة التي لم تتّضح جنسيّتها بعد فلجأ إلى التغليب وهو خطأ ، في رأيي .

٦. توجد في الكلام العربي كلمات تشمل المذكّر والمؤنّث على السواء ، يبدو ظاهرا أنّها جاءت بصيغة المذكّر ، ولكنّها – في الواقع– جاءت بصيغة العموم لتشمل المذكّر والمؤنّث على السواء ، وإن أُريد منها

صيغة خاصّة أُضيفت إليها قرائن معيّنة وذلك ما لم يتطرق إليه النحاة ، بل وقعوا في خطأ التغليب .

٧. لقد عجز النحو تماما عن تفسير كيفيّة تعامل اللغة العربية مع كلمات هي فوق الجنسية ولا تخضع لقوانينها في تعاملها مع الجنس . ولا يصحّ تفسير سلوك العربية في هذا المجال باعتبار اللفظ وليس المدلول ، لأنّ تلك الأسماء ليست ألفاظا مجرّدة ، بل إنّها تشير إلى موجودات فعليّة حيّة عاقلة مفكّرة . كما أنّ تعاملنا مع الكلمات على اعتبار اللفظ يدفعنا إلى فرض الجنسية لها ، لكنّنا لا نتعامل مع الأشياء باعتبار ألفاظها فقط ، ولو كان ذلك مطّردا لخرج المؤنّث المعنوي من التأنيث مع كونه مؤنّثا حقيقيا .

٨. ظهر خطأ التصوّر السائد أنّ العربية لغة مذكّرة لا مكان للمؤنّث فيها إلاّ في رتبة متدنّية لغويا بالنسبة للمذكّر.

٩. إنّ مسألة التذكير والتأنيث في العربية ، في كثير من الكلمات ، مسألة اعتبارية أو جدليه لا تتعدى أن تكون أسلوبا من الأساليب اللغوية لا أكثر ولا تخفي تحتها قيما معنوية أو دلالية أو فكرية . فجمع التكسير ، عادة ، تتمّ معاملته معاملة المفرد المؤنّث على الرغم من أنّ مفرده مذكّر . كما أنّ صفة (فعيل) تستخدم للمذكّر والمؤنّث على السواء ، وكذا (فعول) . وذكر سيبويه في كتابه بابا أسماه { باب ما يُجمع من المذكّر بالتاء لأنّه يصير إلى تأنيث إذا جُمع } وذكر من أمثلة ذلك سُرادقات وحمامات وأوانات وغيرها . (سيبويه ، ١٩٩٠م، ٢: ٢٣٣)

١٠. نجد في العربية صيغة ثالثة إلى جانب صيغتي المذكّر والمؤنّث ، وهي **صيغة العموم** التي تُستخدم في ثلاثة مجالات : **الأول** هو اشتراك المذكّر والمؤنّث ، **والثاني** هو عدم وضوح أيٍّ منهما ، **والثالث** هو كون الكلمة خارج حدود الجنس ولا تنطبق عليها قوانينه .

١١. تتدرّج الكلمات العامّة في عموميّتها ، فهناك كلمات متوغّلة في العمومية – إن صحّ التعبير – نحو : إنسان أو شخص أو شيء أو ضمائر المثنّى : هما ، كما ، أو اسم الإشارة : هؤلاء ، ... إلخ ، وهي الكلمات التي تدلّ على المذكّر والمؤنّث في ألفاظها مناصَفةً ولا يمكن ترجيح أحد الطرفين ؛ المذكّر أو المؤنّث اكتفاءً باللفظ ، لأنّها لا تلحقها علامة التأنيث إن أُريد منها المؤنّث . وهناك كلمات أخفّ توغّلا – إن صحّ التعبير – وهي الكلمات التي تدلّ على المذكّر والمؤنّث في ألفاظها مناصَفةً ويمكن ترجيح أحد الطرفين ؛ المذكّر أو المؤنّث اكتفاءً باللفظ ، لأنّها تلحقها علامة التأنيث إن أُريد منها المؤنّث ، وهي أكثر الكلمات العامّة، نحو: عامل– عاملة، راكب– راكبة ، أحد– إحدى ... إلخ .

المصادر:

القرآن الكريم.

١– حسن ، عباس . النحو الوافي ، بدون معلومات .

٢– سيبويه ، أبو بشر عمرو بن عثمان الكتاب ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، الطبعة الثالثة ، ١٤١٠هـ – ١٩٩٠م ، بيروت .

مواقع الإنترنت:

١– http://www.islamqa.com/ar/ref/98689

أبو قيس صرمة بن أبي أنس الأنصاري

حياته وما تبقى من شعـــــره

الدكتورة نضال احمد باقر الزبيدي

الملخص :

أبو قيس صرمة بن أبي أنس من شعراء العرب الموحدين الذين اشتهروا بعبادة الله الواحد الأحد في الجاهلية والإسلام . غير أن الأيام طوت ذكره فنسيه الناس أو كادوا ، بعد زمان كان فيه شعره وأخباره حديث الناس في المدينة ؛ ولهذا قامت هذه الدراسة إلى بعث سيرة صرمة بن أبي أنس وإحياء شعره لينضم إلى قافلة شعراء العربية المخضرمين بكل ما له وعليه ، وليكون هذا الشعر وهذه الأخبار من ناحية أُخرى في متناول أيدي الدارسين الذين يبحثون في تاريخ تلك الحقبة المتقدمة من حياة أُمتنا العربية ، فقد يجدون فيهما ما يكشف لهم عن جديد ، ويلفت انتباههم إلى أمر ذي بال .

وقد بُذل جهد كبير في البحث عن شعر الرجل وتعقب أخباره ، حتى كانت هذه الترجمة الموجزة وحتى كان هذا النزر اليسير الذي جمعناه من شعره ، وإني لآمل من بعد ، أن أكون قد أسديتُ للرجل حقا هو جدير به ، وقدمتُ للدارسين مادة هم في حاجة إليها .

التعريف بالشاعر :

اختلف الرواة القدامى في تحديد اسمه . فهو " أبو قيس صرمة بن أبي أنس ابن صرمة بن مالك بن عدي بن عامر بن غنم بن عدي بن

النجار [1] وهو صرمة بن أبي أنس واسم أبي أنس قيس بن صرمة بن مالك بن عدي بن عامر بن غنم بن عدي بن النجار الأنصاري "[2]. وعلى هذا يكون ابن هشام في القول الأول قد نسبه إلى جده (صرمة) واسقط اسم والده قيس ومثله فعل ابن الأثير في أسد الغابة [3] ، ويبدو أن إعراض بعض الرواة عن ذكر اسم والده (قيس) يعود الى تلافي الوقوع في الخطأ في نسبه بسبب تشابه الأسماء بين كنيته واسم والده (قيس) واسمه واسم جده (صرمة) أو أن الرواة اكتفوا بذكر كنيته المعروف بها فقالوا "أبو قيس صرمة يا أبي أنس " [4] ، لأن الرجل مشهور لا يحتاج إلى النسب الطويل للتعريف به على حد قوله حين مدح قومه فقال [5] :

يا بَنيَّ الأرحام لا تقطعوها   وصلوها قصيرة من طوال

وأراد بقوله هذا أن أرحامهم قصيرة النسب لكنها من قوم طوال ، والنسب القصير صفة الأشراف المعروفين .

وخير الدين الزركلي من الذين نسبوا الشاعر إلى أبيه وأعرضوا عن ذكر اسم جدة ـ لكنه توهم في نسب قبيلته حين عدَّه من قبيلة الأوس [6] والراجح أنه من

---

[1] السيرة النبوية : ٢/١٢٠.

[2] الاستيعاب : ٢/٧٣٨.

[3] ينظر أسد الغابة : ٦/٢٩.

[4] ينظر تاريخ الرسل والملوك : ٢/٣٨٥ ، مروج الذهب : ٢/٢٨٧ ، بلوغ الأرب : ٢ /٢٦٦.

[5] السيرة النبوية : ٢/١٢٠.

[6] ينظر الأعلام : ٣/٢٩١.

الخزرج [٧] ، وابن هشام الأنصاري نسبه إلى الأنصار الذين نصروا الرسول محمد صلى الله عليه وسلّم بعد قدومه إلى المدينة المنوّرة فقال " صرمة الأنصاري " [٨] .

ومن هذا نستنتج أن اسم شاعرنا هو أبو قيس صرمة بن قيس بن صرمة بن مالك بن عدي بن عامر بن غنم بن النجار الأنصاري الخزرجي المشهور بكنيته التي صرّح بها بقوله [٩] :

يقول أبو قيس وأصبح غاديا الا ما استطعتم من وصاني فافعلوا

وأبو قيس الشاعر الانصاري المخضرم عمّر طويلا ، وأدرك الإسلام شيخا كبيرا " ولم يختلف في شهوده بدرا وما بعدها من المشاهد"[١٠] وهو من بني عدي بن النجار الذين كانوا يقطنون المدينة المنورة .

وتفيد أخبار صرمة في الجاهلية أنه " كره الأوثان وفارقها ، ولبس المسوح ، واغتسل من الجنابة وتطهّر من الحائض من النساء ، وهم بالنصرانية ثم أمسك عنها ، ودخل بيتا له ، فاتخذه مسجدا لا تدخله عليه طامث ولا جنب ، وقال أعبد ربَّ إبراهيم ، وكان قوّالا بالحق معظّما الله عزَّ وجل في جاهليته يقول أشعارا في ذلك حسانا " [١١] .

---

[٧] ينظر الاشتقاق : ٤٥١.

[٨] مغني اللبيب : ١/١٨٩.

[٩] السيرة النبوية : ٢/١٢٠.

[١٠] الاستيعاب : ٤/١٦٩١.

[١١] السيرة النبوية : ٢/١٢٠.

من ذلك قوله [١٢] :

سبّحوا الله شرق كلّ صباحِ طلعت شمسُهُ وكلّ هلالِ
عالمُ السر والبيان لدينا ليسَ ما قالَ ربنا بضلالِ
ولهُ الطير تستريد وتأوي في وكور من آمنات الجبالِ

...

ولهُ هَوَّدت يهود ودانت كل دين إذا ذكرت عضال
ولهُ شمس النصارى وقاموا كل عيد لربهم واحتفالِ
ولهُ الراهبُ الحبيس تراهُ رهن بؤس وكانَ ناعمَ بالِ

وحين بزغ نور الإسلام ، وقدم النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلّم) إلى المدينة أسلم أبو قيس وحسن إسلامه وقبل ذلك " هم بالنصرانية ثم أمسك عنها "[١٣] ومن حسن إسلامه أنه أخذ يصدح بما أكرمه الله سبحانه وتعالى به من نعمة الإسلام، وما خصَّ أهل المدينة به من نزول النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلّم عليهم) فقال [١٤] :

ثوى في قريشٍ بضع عشرة حجةً يذكر لو يلقى صديقا مواتيا
ويعرضُ في أهلِ المواسمِ نفسَهُ فلم يرَ مَنْ يؤوي ولم يَرَ داعيا
فلمّا أتانا أظهرَ الله دينَهُ فأصبح مسرورا بطيبة راضيا

وتفيد الأخبار القليلة التي تناقلها الرواة عن حسن إسلام صرمة ، حين فرض الله سبحانه وتعالى صوم شهر رمضان في قوله تعالى : **(فَمَنْ**

---

(١٢) المصدر نفسه والصفحة نفسها .

(١٣) المصدر نفسه .

(١٤) المصدر نفسه : ١٢٢/٢.

شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ)[١٥] ؛ وكان المسلمون في الليل يأكلون ويشربون ما لم يصبح الصباح فإذا أصبح أمسكوا إلاّ ما كان من صرمة بن أبي أنس " كان يعمل صائما حتّى أمسى فجاء إلى أهله فصلى العشاء ثم نام فلم يأكل ولم يشرب حتى أصبح فأصبح صائما ، فرآه رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلّم) قد جهد جهدا شديدا ، فأخبره "[١٦] وفيه نزلت آية السحور من قوله تعالى : **(وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ**)[١٧].

وليس في أخبار صرمة بن أبي أنس ما يزيد الرجل تعريفا أو يكشف عن الكثير من جوانب حياته فلسنا نعرف عنه سوى هذا النزر اليسير وأنه عمّر طويلا ، إذ عاش عشرين سنة ومائة [١٨] ، وتوفي في السنة الخامسة للهجرة [١٩] إلاّ أن السجستاني لم يترجم له في كتابه المعمرين والوصايا لكنه ذكره عرضا حين روى له قصيدة في الوصايا [٢٠]، أما بقية أخباره فقد أغفل الرواة ذكرها ولم يصل إلينا منها شيء .

شاعريته :

كان أبو قيس صرمة بن أبي أنس الأنصاري صاحب مذهب صالح في شعره ليس من الشعراء الفحول ولا من المرذولين ، في شعره لين وسهولة وعذوبة لفظ .

---

(١٥) سورة البقرة من الآية ١٨٥

(١٦) البداية والنهاية : ٢٥٥/٣.

(١٧) سورة البقرة ، من الآية ١٨٧.

(١٨) ينظر الإصابة : ١٨٢/٢.

(١٩) ينظر الأعلام : ٢٩١/٣.

(٢٠) ينظر المعمرون والوصايا : ١٣٥.

ويصف ابن هشام شعره بقوله " كان قوّالا بالحق معظّما الله عزّ وجل في جاهليته يقول أشعارا في ذلك حسانا " [٢١].

ويغلب على شعر صرمة في عصر ما قبل الإسلام بوادر لشعر العقيدة ، وهي كل ما آمن به القلب وعملت به الجوارح ، وحين أسلم أصبحت فكرته ثابتة واضحة ، فعقيدة المسلم صارت محددة بدين قائم بذاته ونبي مرسل يدعو الى هذا الدين ، وصار لشعره حضور بارز واضح المعالم وواسع الأثر ، إذ اقتفى الشاعر المقل ذلك الأثر ذاكرا الأدلة والأسباب التي دعته للاستجابة إلى دعوة النبي المرسل من الله سبحانه وتعالى ؛ وهذا ما دعا الدكتور يحيى الجبوري إلى وصف شعر صرمة ابن أبي أنس حين كان يتحدث عن شعراء المدينة بقوله " هناك شعراء آخرون في المدينة لم يبلغوا شأو الفحول وقد سقطت لهم أشعار فيها إيمان وتقى مثل صرمة بن أبي أنس الأنصاري " [٢٢] وهذا يعني ضـــياع معظم شـــعر الشاعر .

ويروي ابن عبد البر عن سفيان بن عيينة عن يحيى بن سعيد قال : سمعتُ عجوزا من الأنصار تقول : رأيتُ ابن عباس يختلف إلى صرمة بن قيس يتعلم منه هذه الأبيات [٢٣] :

ثوى في قريشٍ بضعة عشر حجةً   يذكر لو يلقى صديقا مُواسيا
ويعرض في أهل المواسم نفســه   فلم يرَ مَنْ يؤوي ولم يرَ داعيا

---

[٢١] السيرة النبوية : ١٢٠/٢ وينظر الاستيعاب : ٧٣٨/٢.
[٢٢] شعر المخضرمين : ٩٥.
[٢٣] الاستيعاب : ٧٣٨/٢.

إلى أن يصل :

ونعلـــمُ أن الله لا شيء غيره   وأن كتـــابَ اللهِ أصبح هاديـــا

ويغلب على شعر صرمة بن أبي أنس غرض المديح وشعر الوصايا وهو " نوع من أنواع الأدب الحي الرفيع المنزلة من الشعر والنثر ، تنتقى ألفاظها انتقاءً ممتازا ، يطلقها مُجرب حياة ومختبر دنيا ، فيشرع فيها نهجا قويما وسلوكا تنظيميا لإنسان عزيز عليه أو مهم لديه ، يبصره ما ينبغي عليه أن يفعله فيما يستقبل من حياة " (٢٤) وأني لم أعثر فيما وقفت عليه من شعره على شيء في غيرهما .

منهج التحقيق :

عني بعض القدماء بصرمة فترجموا له وعرفوا به وتناقلوا بعض أخباره ورووا بعض شعره . غير أن هذه الأخبار جاءت مكررة لا تكشف عن غامض مهم ولا تضيف جديدا مستورا ، فكأنما هي قد صدرت عن مصدر واحد لا يتغير هو الأساس لكل ما ذكر عن الشاعر أو ما رويَ له.

أما عن المعاصرين ، فأني لم أعثر للرجل في مصنفاتهم على شعر مجموع له ، وقد عثرتُ على بعض التعريفات الموجزة والإشارات الباهتة (٢٥) ؛ وسبب ذلك يعود إلى ضياع شعر الشاعر فلم يصل إلينا منه إلاّ النزر اليسير الذي احتفظت به كتب التراث العربي على اختلاف أنواعـــه ، ومع ذلك فمنهجي في تحقيق ما عثرت عليه من شعر ، هو ترتيبه حسب قوافيه على الطريقة الهجائية ، وإن كان هناك أكثر من نص

---

(٢٤) جمهرة وصايا العرب : ١٨/١.

(٢٥) ينظر شعر المخضرمين : ٩٥.

على حرف واحد ؛ فيكون الترتيب حسب الحركات الكسرة ، الضمة ، الفتحة ، السكون ، أما ترتيب مصادر التخريج فسيكون بموجب الكثرة والقلة ، وجعلت النص الأطول هو النص (الأم) وما عداه فهو اختلاف رواية ، فالأكثر رواية له الصدارة وإن تساوى أكثر من مصدر ، فعند ذاك يكون القِدم هو الفيصل ثم أثبت بعد التخريج اختلاف الرواية في حالة وجود خلاف فيها ، أما شرح ما به حاجة إلى شرح وتوضيح من مفردات النص وتراكيبه فقد أدرجتهُ في الهامش لكي لا أثقل اختلاف الرواية .

وختاما أدعو الله أن يسدد الخطى ويوفق العاملين لخدمة تراثنا المجيد ، إنه نعمَ المولى ونعمَ النصير .

— ١ —

قال ابو قيس صرمة بن أبي أنس الأنصاري : (من الوافر)

١- لنا صرمٌ يدول الحقُّ فيها وأخلاق يسودُ بها الفقيرُ [٢٦]
٢- ونُصحُ للعشيرةِ حيثُ كانت إذا ملئت من الغشِ الصدور
٣- وحلمٌ لا يسوغُ الجهلُ فيه وإطعامٌ إذا قحطَ الصَّبير[٢٧]
٤- بذاتِ يدٍ على ما كانَ فيها نجودُ بهِ القليلُ أو الكثير

التخريج : الاستيعاب : ٤/١٦٩١-١٦٩٢.

---

[٢٦] صَرَمَ : الصرم القطع البائن ، والصُّرم اسم للقطيعة والتصارم التقاطع ، لسان العرب ، مادة صَرَمَ .

[٢٧] الصبير : الكفيل ، وصبير القوم زعيمهم المقدم في أمورهم .
ينظر المصدر نفسه ، مادة صبر .

قال أبو قيس صرمة بن أبي أنس الأنصاري (من الطويل) :

١- يقولُ أبو قيس وأصبحَ غاديا ألا ما استطعتم من وصاتي فافعلوا
٢- فأوصيكم باللهِ والبر والتقى وأعراضكم والبرُّ باللهِ أولُ
٣- وإن قومُكمْ سادُوا فلا تحسدَنَّهُمْ وإن كنتم أهلَ الرياسة فاعدلوا
٤- وإن نزلت إحدى الدواهي بقومكم فأنفسكم دونَ العشيرةِ فاجعلوا
٥- وإن نابَ غرم فادح فارفقوهم وما حملوكم في الملماتِ فاحملوا
٦- وإن أنتمْ أمعرتم فتعففوا وإن كانَ فضلُ الخيرِ فيكم فافضلوا

التخريج :

السيرة النبوية : ١٢٠/٢.

المعمرون والوصايا : ١٣٤.

الاستيعاب : ١٧٣٥/٤ والبيت رقم (١) في ٧٣٨/٢ أيضا .

أُسد الغابة : ٤٩/٦-٥٠.

البداية والنهاية : ١٥٧/٣.

الأبيات ٢، ٣ ، ٦ في العقد الفريد : ٢٦٦/١.

الأبيات ١، ٢، ٦ في الإصابة : ١٨٢/٢.

اختلاف الرواية :

١- صدر البيت الأول في الاستيعاب وأُسد الغابة برواية .. وأصبح ناصحا وهي الرواية الراجحة ؛ لأنها أقرب الى المعنى والسياق ، وورد عجزه في الاستيعاب برواية .. من وصاياي ، ورواية الأصل هي الراجحة ؛ لأن رواية الاستيعاب تخل بالوزن .

٢- ورد صدر البيت الثاني في المعمرين والوصايا والاستيعاب وأسد الغابة برواية .. أوصيكم .. وفي العقد الفريد ورد صدر البيت برواية .. أول وهلة .. وورد عجزه برواية .. وأحسابكم .. وأرجح رواية الأصل ؛ لأن الكلام يكتمل معناه بها . وورد صدر البيت في الإصابة برواية .. بالبر والخير .. وعجزه برواية .. وإن كنتم أهل الرياسة .. وفيها تقديم عجز البيت الثالث الذي لم يذكره صاحب الإصابة .

٣- ورد صدر البيت الثالث في المعمرين والوصايا وفي الاستيعاب ، والعقد الفريد برواية .. تحسدوهم وبها يستقيم الوزن . وورد عجزه في المعمرين والوصايا والعقد الفريد برواية .. السيادة وورد عجزه في أُسد الغابة برواية .. دون أهل الرياسة .

٥- ورد صدر البيت الخامس في المعمرين والوصايا برواية .. طلبوا عرفا فلا تحرموهم .. وورد عجزه .. وإن كان فضل العرف فيهم فافضلوا وهي رواية مختلفة عن باقي الروايات . وورد صدر البيت في الاستيعاب برواية .. وإن يأتَ غرم[٢٨] قادح وأرجح رواية الأصل ؛ لأن قادح قد يكون وقع فيها تصحيف .

٦- ورد صدر البيت السادس في المعمرين والوصايا ، والعقد الفريد برواية .. أعوزتم .. وفي الاستيعاب ورد صدره برواية .. أملقتم ، وتعني افتقرتم وهي الرواية الراجحة ؛ لأن رواية الأصل أمعرتم

---

[٢٨] الغرم : الدَّين ، ورجل غارم عليه دين ، ينظر المصدر نفسه ، مادة غرم، فادح : متقل ، المصدر نفسه ، مادة فدح ، الملمات وهي النازلة من نوازل الدهر .

تعني أصابتكم شدة .. وبهذا تكون رواية الاستيعاب أقرب إلى المعنى والأسلوب . وفي البداية والنهاية والإصابة برواية .. أمعزتم ، ومعنى أمعز : افتقر ، وورد عجزه في المعمرين والوصايا برواية .. وما حملوكم في النوائب فاحملوا .. وفي العقد الفريد ورد عجزه برواية .. فضل المال .. وفي الإصابة برواية .. فضل لكم فيكم .. ورواية الأصل هي الأرجح ففيها يستقيم المعنى والوزن .

ـ ٣ ـ

قال أبو قيس صرمة بن أبي أنس الأنصاري في الجاهلية (من الخفيف) :

١- سبحوا اللهَ شرقَ كل صباحٍ ... طلعتْ شمسُهُ وكلَّ هلالِ
٢- عالمُ السر والبيان لدينا ... ليسَ ما قالَ ربُّنا بِضلالِ
٣- ولهُ الطير تستريد وتأوي ... في وكورٍ من آمناتِ الجبالِ
٤- ولهُ الوحش بالفلاةِ تراها ... في حقافٍ وفي ظِلال الرمالِ[٢٩]
٥- ولهُ هودت يهود ودانت ... كلَّ دينٍ إذا ذكرتَ عِضالِ
٦- ولهَ شمس النصارى وقاموا ... كل عيد لربهِمْ واحتفالِ
٧- ولهَ الراهب الحبيس تراهُ ... رهن بؤسٍ وكانَ ناعم بالِ
٨- يا بَنيَّ الأرحامِ لا تقطعوها ... وصلوها قصيرة من طوالِ
٩- واتقوا اللهَ في ضعافِ اليتامى ... ربما يستحيل غير الحلال
١٠- وأعلموا أن لليتيمِ وليا ... عالما يهتدي بغيرِ السؤال
١١- ثم مالَ اليتيمِ لا تأكلوهُ ... إن مالَ اليتيم يرعاهُ والِ

(٢٩) حقاف يعني حقاف الرمل وهو ما نكس منه في استدارة .

١٢- يا بني التخـوم لا تخزلوهـا ... إن خزل التخوم ذو عقـالِ[٣٠]

١٣- يا بنـي الأسـام لا تأمنوهـا ... وأحذروا مكرها ومر الليـالي

١٤- واعلموا أن أمرها لنفاد الـ ... خلق ما كانَ من جديد وبالي (م)

١٥- واجمعوا أمركم على البرّ والتقـ ... وى وترك الخنا وأخذ الحلالِ (م)

التخريج :

القصيدة في السيرة النبوية : ٢/١٢٠-١٢١.

القصيدة في البداية والنهاية : ٣/١٥٧.

الأبيات ١، ٢ ، ٨، ٩، ١٠ ، ١١، ١٢، ١٣، ١٥ في الاستيعاب : ٤/١٤٣٥-١٤٣٦، والبيت رقم ١ في ٢/٧٣٨ أيضا .

الأبيات ١ ، ٨، ١٢ في المعارف : ٦١.

الأبيات ١ ، ٨، ١٢ في بلوغ الأرب : ٢/٢٦٦.

البيت رقم (١٢) في لسان العرب : مادة تخم . وقد نسب لأحيحة بن الجلاح وهو في ديوانه : ٨٠ .

اختلاف الرواية :

٢-ورد صدر البيت الثاني في البداية والنـهاية برواية .. والبـيان جميعا .

٣-ورد صدر البيت الثالث في البداية والنهاية برواية .. الطير تستزيد وهذا تصحيف ؛ لأن تستريد في رواية الأصل أرجح وهي بمعنى

---

[٣٠] التخوم الفصل بين الأرضين من الحدود والمعالم ، المصدر نفسه، مادة تخم .

الخزل : الانحراف في المشي أو هو القطع ، وقد ورد هذا البيت في لسان العرب ، مادة تخم منسوبا لأحيحة بن الجلاح وقال ابن منظور ويقال أن لأبي قيس بن الأسلت، والراجح أنه لأبي قيس صرمة الأنصاري كما ذكرت أقدم المصادر وأكثرها .

تذهب وترجع إلى كورها ، والوكر هو عش الطائر وهو الأقرب إلى المعنى .

٥- ورد عجز البيت الخامس في البداية والنهاية برواية .. دين مخافة من وهي الرواية الراجحة ؛ لأنها أقرب إلى المعنى .

٧- ورد عجز البيت السابع في البداية والنهاية برواية .. أنعم بالِ .

٩- ورد عجز البيت التاسع في البداية والنهاية برواية .. وبما يستحِل وورد عجزه في الاستيعاب برواية .. ربما يُستحل .. وهي الرواية الأقرب إلى المعنى والسياق .

١٠- ورد عجز البيت العاشر في البداية والنهاية برواية .. سؤالِ .

١٢- ورد صدر البيت الثاني عشر ڤي البداية والنهاية برواية .. تجزلوها.. وفي الاستيعاب .. النجوم لا تخذلوها .. وفي المعارف .. لا تظلموها . وورد عجزه في البداية والنهاية برواية .. إن جَزل .. وفي الاستيعاب .. إن خذل .. وفي المعارف .. إن ظلم .. وفي بلوغ الأرب ورد برواية .. إن ظلمَ النجوم داء عضال .

١٣- ورد عجز البيت الثالث عشر في الاستيعاب برواية .. ومكر وهي الرواية الراجحة ؛ لأنها أقرب إلى المعنى .

— ٤ —

قال أبو قيس صرمة بن أبي أنس الأنصاري في الإسلام (من الطويل) :

١- ثوى في قريشٍ بضعَ عشرةَ حجةً يذكِّرُ لو يلقى صديقا مواتيا
٢- ويعرضُ في أهلِ المواسمِ نفسهُ فلم يرَ منَ يؤوي ولم يرَ داعيا
٣- فلما أتانا أظهرَ اللهُ دينهُ فأصبحَ مسرورا بطيبةَ راضيا

٤- وألفى صديقا واطمأنت بهِ النوى وكانَ لهُ عونا من اللهِ باديا[٣١]
٥- يقصُّ لنا ما قالَ نوحٌ لقومهِ وما قالَ موسى إذ أجابَ مناديا
٦- فأصبحَ لا يخشى منَ الناسِ واحدا قريبا ولا يخشى من الناسِ نائيا
٧- بذلنا له الأموالَ من جُلِّ مالنا وأنفسنا عندَ الوغى والتآسيا
٨- ونعلمُ أنَّ اللهَ لا شيءَ غيرهُ ونعلمُ أن اللهَ أفضلَ هاديا
٩- نعادي الذي عادى من الناسِ كلهُمُ جميعا وإن كانَ الحبيبُ المصافيا
١٠- أقولُ إذا أدعوكَ في كلِّ بيعةٍ تباركت قد أكثرت لا سمكَ داعيا
١١- أقولُ إذا جاوزتُ أرضا مخوفةً حنانيكَ لا تظهر على الأعاديا
١٢- فطأ معرِضا إن الحتوفَ كثيرةٌ وإنكَ لا تُبقي لنفسكَ باقيا
١٣- فوالله ما يدري الفتى كيفَ يتقي إذا هو لم يجعل لهُ الله واقيا
١٤- ولا تَحفل النخلُ المعيمة ربَّها إذا أصبحت ريّا وأصبحَ ثاويا

التخريج :

القصيدة في السيرة النبوية : ٢/١٢٢-١٢٣.

الأبيات ١، ٢ ، ٣، ٤، ٥، ٦، ٧، ٩، ٨، ١٠، ١١، ١٢، ١٣، ١٤ في البداية والنهاية : ٣/٢٠٤.

الأبيات ١، ٣، ٥، ٢، ٦، ٧، ٨، ٩ في المعارف : ٦١.

الأبيات ١، ٢، ٣، ٥، ٦، ٧، ٨، في تاريخ الرسل والملوك :٢/٣٨٥-٣٨٦.

الأبيات ١، ٢، ٣، ٦، ٧، ٨، ٩ في مروج الذهب : ٢/٢٨٧ ، وورد البيت (١) في :١/٧٤ أيضا .

الأبيات ١، ٢، ٣، ٦، ٧، ٨، ٩ في الاستيعاب : ٢/٧٣٨.

---

(٣١) النوى : المكان الذي تنوي أن تأتيه في سفرك ، ينظر المصدر نفسه ، مادة نوى.

البيت رقم (١) في الإصابة : ١٨٢/٢.

اختلاف الرواية:

١- ورد عجز البيت الأول في المعارف ومروج الذهب برواية .. بمكة لا يلقى .. وهي الرواية الراجحة ؛ لأنها أقرب وأنسب للمعنى والسياق .

٣-ورد صدر البيت الثالث في البداية والنهاية وفي المعارف برواية .. واطمأنت به النوى ، وفي الاستيعاب ورد برواية .. واستقرت به النوى .. ورواية الأصل أرجح .. وورد عجز البيت في البداية والنهاية ، والمعارف برواية فأصبح .. وفي تاريخ الرسل والملوك ورد برواية له عونا من الله باديا .. ورواية الأصل أرجح .. لأنها أقرب للمعنى .

٥- ورد عجز البيت الخامس في البداية والنهاية برواية .. المناديا وهي الراجحة ؛ لأنها تقيم الوزن .

٦- ورد صدر البيت السادس في المعارف برواية ــ وأصبح ــ وفي الاستيعاب برواية وأصبح ما يخشى ظلامه ظالم .. وورد عجز البيت في المعارف ومروج الذهب برواية .. بعيدا .. دانيا .

٧- ورد صدر البيت السابع في المعارف ومروج الذهب برواية .. في كل ملكنا .. وورد عجزه في المعارف برواية .. عند الوفى وأرى أنه تصحيف ؛ لأن جميع الروايات اتحدت .

٨- ورد صدر البيت الثامن في المعارف ومروج الذهب برواية .. لا ربَّ غيره .. وورد عجزه في البداية والنهاية وفي الاستيعاب برواية .. وإن كتاب الله أصبح هاديا ، وفي المعارف ومروج الذهب ورد برواية .. وإن رسول الله للحق رائيا .

٩- ورد عجز البيت التاسع في البداية والنهاية برواية .. لمواسيا وفي الاستيعاب برواية .. المواتيا .

١٠- ورد صدر البيت العاشر في البداية والنـــهاية برواية ... إذا صلّيت ، وورد عجزه برواية ــ حنانيك .. علينا .

١١- ورد صدر البيت الحادي عشر في البداية والنهاية برواية .. مُحيفة وورد عجزه برواية تباركت اسم الله أنت الموا ليا .

١٣- ورد صدر البيت الثالث عشر في البداية والنهاية برواية سعيه ورواية الأصل أرجح .

ــ ٥ ــ

قال أبو قيس صرمة بن أبي أنس الأنصاري (من الطويل) :

ألا ليتَ شعري ، هل يرى الناسُ ما أرى   مِنَ الأمرِ ، أو يَبدو لَهُمْ ما بَدا لِيا

٢- بَدا لي انّي عِشْتُ تسعينَ حَجَّةً   وعشرا وتسعا بَعْدَها وثمانيا

٣- فَلمْ ألفها لما مَضَــتْ وعددتُهـــا   بحسبتها في الدهــرِ إلاّ ليااليــا

التخريج :

المعمرون والوصايا : ٨٤ وفيها " قال أبو حاتم ؛ وكان الأصمعي يزعم أن القصيدة لأنس بن زنيم ، قال أبو روق : غلط أبو حاتم إنما كان الأصمعي يقول القصيدة لصرمة الأنصاري " وأنا أرجح هذا الرأي ، لأن الكلام قريب إلى أسلوب صرمة الأنصاري ، ويبدو أن هذه الأبيات هي جزء من القصيدة التي قبلها .

البيتــان٣،٢ في الإصابة : ١٨٢/٢ــ١٨٣ منسوبــان لصرمة الأنصاري ، وكلاهما مختل الوزن .

البيتان ٢، ٣ في الروض الأنف : ٢٨٩/٢ منسوبان لأفنون التغلبي وكلاهما مختل الوزن .

(*) يبدو أن هذه القطعة والقصيدة التي قبلها من قصيدة واحدة ، إلاّ أنني لم أجد مصدرا يجمعها ، فآثرتُ إبقاءها كما وردت أمانةً لضوابط التحقيق .

اختلاف الرواية :

٢-ورد عجز البيت الثاني في الإصابة والروض الأنف برواية وعشر أول وما بعدها ثمانيا .

٣-ورد عجز البيت الثالث في الإصابة والروض الأنف برواية بحسبها .

ما نسب له ولغيره من الشعراء

من الطويل - ١ -

١- يا راكبا إما عرضت فبلغنْ ... مغلغلة عني لؤي بن غالب
٢- رسول امرئ قد راعهُ ذات بينكمْ ... على النأى محزون بذلك ناصب
٣- وقد كانَ عندي للهمومِ معرس ... فلمْ أقضِ منها حاجتي ومآربي
٤- نبيتكُم شرجين كل قبيلة ... لها أزمل من بينَ مذك وحاطب
٥- أعيذكمُ باللهِ من شرِّ صنعكُم ... وشرٌ تباغيكمْ ودس العقاربِ
٦- وإظهار أخلاقٍ ونجوى سقيمةٍ ... كوخز الأشافي وقعها حق صائبِ
٧- فذكرهم باللهِ أولَ وهلة ... وإخلال أحرام الضباء الشوازبِ
٨- وقل لهم والله يحكمُ حكمهُ ... ذروا الحرب تذهب عنكم في المراحبِ
٩- متى تبعثوها تبعثوها ذميمة ... هي الغول للأقصين أو للأقاربِ
١٠- تقطع أرحامها وتهلكُ أمة ... وتبري السديف من سنامٍ وغاربِ
١١- وتستبدلوا بالأتحمية بعدها ... شليلا وأصداء ثياب المحاربِ
١٢- وبالمسك والكافور غبرا سوابغا ... كأنَّ قتيريها عيون المحاربِ

١٣- فإيـــاكم والحـــرب لا تعلقـــنكم وحوضا وخيم المـــاء مُـرٌّ المـشاربِ
١٤- تـزين للأقـــوام ثـــم يرونهـــا بعاقـــبة إذ بيـــنت أمُ صـــاحبِ
١٥- تحرقُ لا تشوي ضـعيفا وتنتحـى ذوي العز منكُمْ بـالحتوفِ الـصوائبِ
١٦- ألم تعلموا ما كانَ في حربِ داحسٍ فتعتبروا أو كانَ في حـربِ حاطـبِ
١٧- وكم قد أصابت من شريفٍ مسوّدٍ طويل العمـادِ ضـيفُهُ غيـرَ خائـبِ
١٨- عظيمِ رماد النـارِ يُحمـد أمـرهُ وذي شيمة مَحْضٍ كـريم المـضاربِ
١٩- وماءٍ هُريق فـي الـضلالِ كأنمـا إذاعت بـهِ ريـح الـصبا والجنائـبِ
٢٠- يخبركُمْ عنها امـرؤٌ حـقَّ عـالمٍ بأيامهـــا والعلـــم علـم التحـاربِ
٢١- فبيعوا الحراب ملمحارب واذكروا حـــسابكم والله خيـــر محاســـبِ
٢٢- وليُّ امرئ فاختار دينا فـلا يكـن علـيكم رقيبـا غيـر رب الثواقـبِ
٢٣- أقيموا لنـا دينـا ضـعيفا فـأنتمُ لنـــا عانـــة يُهتـــدى بالـــذوائبِ
٢٤- وأنتم لهذا الناس نـور وعـصمة تؤمـون والأحـلام غيـر عـوازبِ
٢٥- وأنتم إذا ما حصل الناس جـوهر لكـم سُـرّةُ البطحـاء شُـمُّ الأرانـبِ
٢٦- تصونون أجـسادا كرامـا عتيقـة مهذّبـــة الأنـــساب غيـــر أشـــائبِ
٢٧- ترى طالب الحاجات نحو بيـوتكم عـصائب هلكـى تهتـدي بعـصائبِ
٢٨- لقـد علـم الأقـوام أن سـراتكمْ على كلِّ حالٍ خيـرُ أهـل الجباجـبِ
٢٩- وأفـضلهُ رأيـا وأعـلاهُ سُـنة وأقولـــهُ للحـــقِّ وســـط المواكـبِ
٣٠- فقوموا فـصلوا ربكـم وتمـسحوا بأركان هـذا البيـتِ بـينَ الأخاشـبِ
٣١- فعنـدكم منـهُ بـلاءٌ ومـصدقٌ غداة أبـي يكـسوم هـادي الكتائـبِ
٣٢- كتيبتـهُ بالـسهلِ تمـسى ورَجلـهُ على القادفـاتِ فـي رءوسِ المناقـبِ
٣٣- فلمّا أتاكم نصرُ ذي العرشِ ردَّهـم جنود المليك بـينَ سـافٍ وحاصـبِ
٣٤- قولوا سراعا هاربين ولـم يـؤب إلى أهلـهِ ملحـبش غيـر عـصائبِ
٣٥- فإن تهلكوا تهلك وتهلك مواســمُ يعاش بها قول امـرئ غيرَ كـــاذبِ

التخريج :

القصيدة في السيرة النبوية :١/١٧٩-١٨٠-١٨١ منسوبة لأبي قيس بن الأسلت .

والأبيات ١٦، ١٩، ٢١، ٣٢، في السيرة النبوية : ١/١٨١ وردت منسوبة لأبي زيد الأنصاري وغيره .

الأبيات من ١-٢٠ ومن ٢٢-٣٥ في البداية والنهاية وردت منسوبة لأبي قيس صرمة بن أبي أنس الأنصاري .

<u>اختلاف الرواية :</u>

١- ورد صدر البيت الأول في البداية والنهاية برواية .. أيا راكبا وهي الرواية الراجحة لدينا ، لأنها تقيم الوزن .

٣- ورد عجز البيت الثالث في البداية والنهاية برواية .. ولم .

٩- ورد عجز البيت التاسع في البداية والنهاية برواية .. أو الأقارب .

١٧- ورد صدر البيت السابع عشر في البداية والنهاية برواية .. وكم ذا .

٢٠- ورد عجز البيت العشرين في البداية والنهاية برواية .. بأيامها واللهُ خيرُ محاسب .

٢٦- ورد صدر البيت السادس والعشرين في البداية والنهاية برواية .. أنسابا كراما وهي الرواية الراجحة ؛ لأنها أقرب إلى المعنى والسياق

(من الطويل)

– ٢ –

بدا لي أني لستُ مدركٌ ما مضى   ولا سابقا شيئا إذا كانَ جائيا

التخريج :

البيت في مغني اللبيب : ١٨٩/١ وقد عزاه إلى زهير بن أبي سلمى وصرمة الأنصاري .

البيت في الكتاب (كتاب سيبويه) : ٨٣/١ وقد عزاه إلى زهير بن أبي سلمى.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم .
- الاستيعاب في معرفة الأصحاب ، لأبي عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر (ت ٤٦٣هـ) ، تحقيق : علي محمد البجاوي ، مطبعة نهضة مصر، القاهرة ، د.ت .
- أسد الغابة في معرفة الصحابة ، لعز الدين ابن الأثير أبي الحسن علي بن محمد الجزري (ت ٦٣٠هـ) ، تحقيق الشيخ علي محمد معوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود ، دار الكتب العلمية ، بيروت ـ لبنان ، د.ت .
- الاشتقاق ، لأبي بكر محمد بن الحسن بن دريد (٢٢٣-٣٢١هـ) تحقيق عبد السلام محمد هارون ، مكتبة الخانجي بمصر ، د.ت .
- الإصابة في تمييز الصحابة ، شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ)، راجع نصوصه وضبط أعلامه على حروف المعجم ، صدقي جميل العطار ، دار الفكر ، ط١ ، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م .
- الأعلام ، قاموس تراجم، لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين ، لخير الدين الزركلي (ت ١٣٩٦هـ) ، دار العلم للملايين ، ط٢ .

-البداية والنهاية ، لأبن كثير الدمشقي (ت ٧٧٤هـ) ، مكتبة المعارف ، بيروت ، ومكتبة النصر ، الرياض ، ط١ ، ١٩٦٦م .
-بلوغ الأرب في أحوال العرب ، محمود شكري الآلوسي (ت ١٣٤٢هـ) ، عنى بشرحه وضبطه محمد بهجة الأثري ، دار الكتب العلمية ، بيروت ــ لبنان ، د.ت .
-تاريخ الرسل والملوك ، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ) ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦١م .
-جمهرة وصايا العرب ، دراسة وتحقيق : محمد نايف الدليمي ، منشورات دار النضال للطباعة والنشر والتوزيع ، ط١، بيروت ، ١٤١١هـ ــ ١٩٩١م .
-ديوان أحيحة بن الجلاح الأوسي الجاهلي (دراسة جمع ، تحقيق) الدكتور حسن محمد باجودة ، نادي الطائف الأدبي ، ١٩٧٩م .
الروض الأنف في شرح السيرة النبوية ، لابن هشام ، عبد الرحمن السهيلي (ت ٥٨١هـ) ، تحقيق وشرح : عبد الرحمن الوكيل ، مصر ، د.ت.
-السيرة النبوية ، لأبي محمد بن عبد الملك بن هشام (ت ٢١٨هـ) ، دار الفجر للتراث ، ط٢ ، ١٤٢٥هـ ــ ٢٠٠٤ ، القاهرة .
-شعر المخضرمين وأثر الإسلام فيه ، الدكتور يحيى الجبوري ، قدم له الدكتور محمد طه الحاجري ، منشورات مكتبة نهضة بغداد ، ط١ ، ١٩٦٤م .

-العقد الفريد ، لأبي عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي (ت ٣٢٨هـ) ، شرح أحمد أمين ، أحمد الزين ، إبراهيم الأبياري ، مطبعة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٤٠م .

-الكتاب ، لعلم الأعلام إمام كل إمام مالك أزمة الأدب وملك علوم العرب ، أبي بشر عمرو الملقب بسيبويه (ت ١٨٦هـ) ط١ ، المطبعة الكبرى الأميرية ببولاق المحمية ، سنة ١٣١٧هـ .

-لسان العرب ، لأبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري (ت ٧١١هـ) ، دار صادر ، د.ت .

-مروج الذهب ومعادن الجوهر ، لأبي الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي (ت ٣٤٦هـ) ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، ط٤ ، ١٩٦٤م ، مطبعة السعادة بمصر .

-المعارف ، لابن قتيبة بن محمد بن عبد الله بن مسلم (٢١٣-٢٧٦هـ) ، حققه وقدم له ثروت عكاشة ، مطبعة دار الكتب ، ١٩٦٠م .

-المعمرون والوصايا ، لأبي حاتم السجستاني (ت ٢٤٨هـ) أو سنة (٢٥٠ هـ) ، تحقيق عبد المنعم عامر ، دار إحياء الكتب ، عيسى البابي وشركاءه ، ١٩٦١م.

-مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ، للإمام جمال الدين عبد الله بن يوسف بن أحمد بن هشام الأنصاري (ت ٧٦١هـ) ، قدم له ووضع فهارسه وحواشيه حسن جمد واشرف عليه الدكتور أميل بديع يعقوب ، دار الكتب العلمية ، بيروت ــ لبنان ، ط١ ، ١٩٩٨ م .